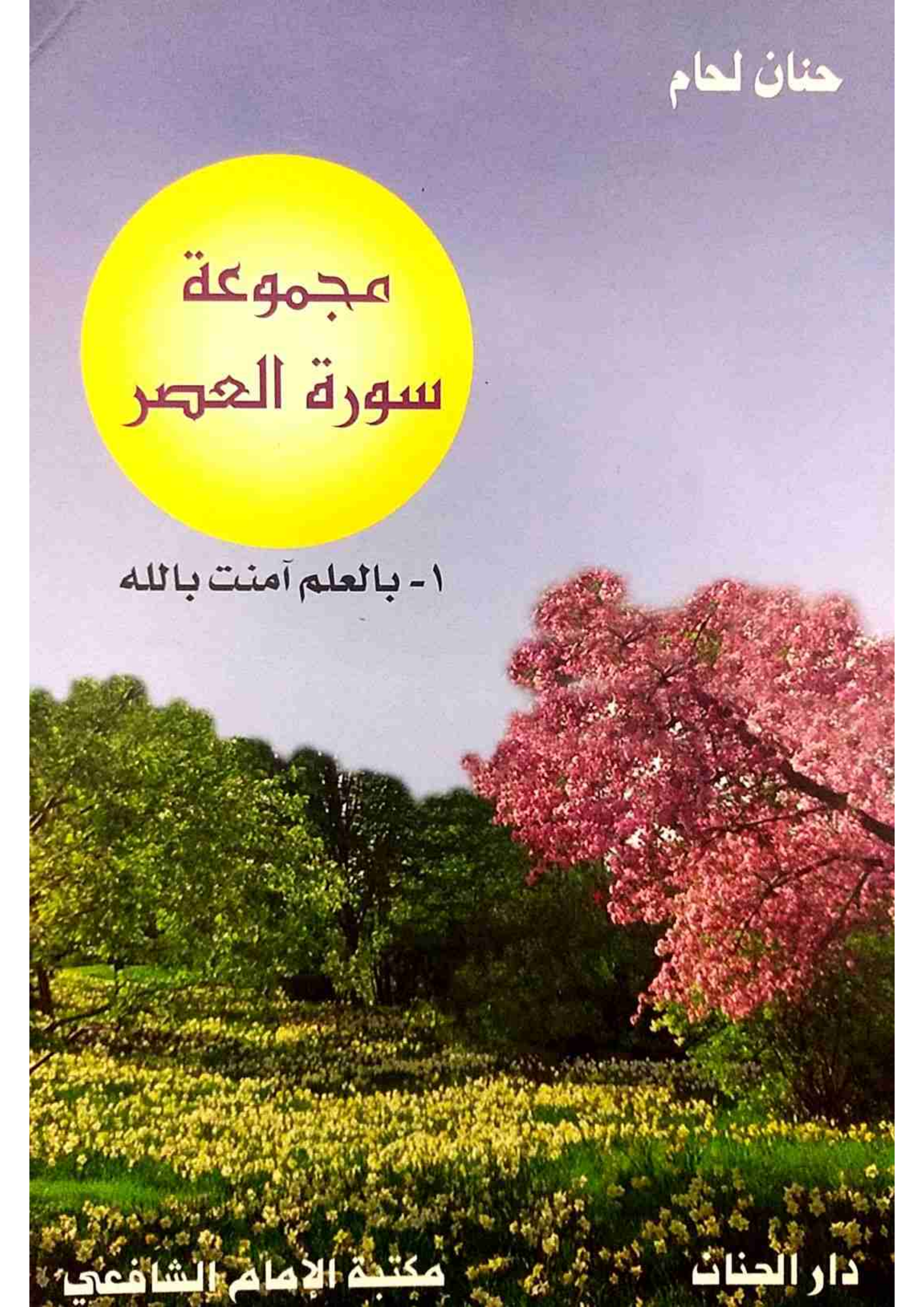

حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
١ - بالعلم آمنت بالله
دار الجنان
مكتبة الإمام الشافعي

مجموعة سورة العصر

(١)

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾

العلم

بالعلم آمنت بالله

حنان لحام

الطبعة الأولى

١٤١٨ ـ ١٩٩٨

عدد النسخ: ١٠٠٠

الطباعة والتجليد: مؤسسة الرازي للطباعة والتجليد

موافقة وزارة الإعلام رقم: ٣٩٧٧٧ تاريخ ١٩٩٧/٦/٢٣

دار الحنان

سوريا ـ دمشق ـ شارع الحمراء ـ بناء هلال ـ هاتف: ٢٢٣٢٣٦٦

مكتبة الإمام الشافعي

السعودية ـ الرياض ـ شارع العطايف ـ الديرة ـ هاتف: ٤١١٨١١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

قال العلماء : سورة العصر فرضت على المسلم أربعة أمور

العلم + العمل + الدعوة + الصبر

آمنوا + عملوا الصالحات + تواصوا بالحق + تواصوا بالصبر

نبدأ من العلم فهو الطريق للإيمان

«فاعلم أنه لا إله إلا الله»

* * *

كان جميل مدهوشاً من سعادة رفيقه أحمد فهو دائم الابتسام طيب الكلام، محبوب من أصدقائه ومعلميه. . لا يشتكي من قلة مصروفه ولا يتأفف من بساطة مظهره. بل هو قانع النفس يتسابق عليه أصدقاؤه ليشاركهم في ألعابهم. ويسعون إليه كلما وقعوا في خلاف أو واجهتهم مشكلة ليسمعوا رأيه ويقبلوا مشورته. . وهو مستمتع بحبهم يقاسمهم فرحتهم وهمومهم. . بل إنه يعرف كيف ينقل إليهم عدوى سعادته. وكان جميل يتساءل دائماً: ما سر هذه السعادة ؟! لو كان أحمد غنياً لما تعجبت ولكنه قلما يشتري كما يشتري أقرانه في المدرسة من تسالي. . فإذا صادف واشترى بعض المأكولات شارك فيها رفاقه. . عجباً له!! كيف يضحك من كل قلبه وهو لا يلبس الملابس الجديدة ولا يشتري ما يحلو له مثل الآخرين. . ؟! لا بد لي من سؤاله.

حان وقت الإنصراف من المدرسة والتقى الصديقان في طريق العودة إلى البيت. . كان جميل مطرقاً يفكر: كيف سيبادر صديقه بما يحيره من أمره. . نظر أحمد إليه ثم قال باسماً:

ـ ما بك يا جميل ؟ تبدو مشغول البال بأمر. . هل أستطيع مساعدتك ؟

ـ نعم يا صديقي. . إنني أعجب من أمرك.

نظر أحمد إليه باستغراب. فتابع جميل:

ـ إنني أراك دائم السرور والابتسام! ماالذي يجعلك سعيداً هكذا ؟!

ضحك أحمد وقال: ـ ولم لا أكون سعيداً ؟!

ـ هل استمتعت بشراء كل ما تشتهي من ملابس ولعب ومأكولات ؟

ـ طبعاً لا . .

ـ فكيف تكون سعيداً ؟!

ـ لأن لي جسماً سليماً وعقلاً كاملاً وبيتاً لطيفاً أسكن فيه مع والدين حبيبين وإخوة وأخوات لطفاء. . ولأنني ناجح في دراستي محبوب من أساتذتي وأصدقائي.

ـ ولكن ألا تحس أنك تخسر مصروفك لأنك غالباً ما تقدم ما تشتريه لأصدقائك ؟!

كان أحمد يحدق في صديقه متعجباً. تابع جميل فقال:

ـ ألا تحسّ بالحرمان من الاستمتاع ؟ ثم أنك لا تدخر كما أفعل أنا فأنا أوفر من مصروفي كي أصبح غنياً وأشتري ما يحلو لي.

سأل أحمد باسماً: ـ فهل أنت سعيد بذلك ؟

سكت جميل قليلاً ثم قال: ـ أحس أنك أكثر سعادة مني.

قال أحمد: ـ لأنني أنا الرابح يا جميل بإذن الله.

ـ وماذا ربحت ؟!

ـ ربحت السعادة والرضى ومحبة أهلي وأصدقائي وأساتذتي.

هز جميل رأسه قائلاً: ـ لا أفهم عليك. .

فقال أحمد: ـ لا تعجب يا صديقي سأحكي لك عن سر سعادتي:

لقد علمني أبي سورة من القرآن عظيمة دلتني على طريق السعادة والربح.

ـ وما هي يا أحمد ؟

ـ إنها سورة العصر التي تبين أن الناس كلهم خاسرون إلا من تحلى بصفات أربع. . تعال معي يا جميل لأهديك (مجموعة سورة العصر)

كي تتعرف على طريق السعادة والنجاح.

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾

بالعلم عرفت الله

ـ لماذا تحبين درس العلوم يا هدى ؟

ـ لأنه يطلعني على أسرار الكون وعجائب الخلق يا سمية .

كانت سمية وهدى تتجولان في فناء المدرسة بانتظار أن يحين موعد حصة العلوم. أشارت هدى إلى أحواض النباتات المبثوثة في جنبات الفناء المزدانة بالورود والأزهار وأوراقها الخضر النضرة تلتمع مرحبة بشمس الصباح اللطيفة .

ـ انظري يا سمية . . ما أبدع هذه الورود والأزهار . .

هل تذكرين درس الأمس في العلوم ؟

ـ أجل لقد تحدثت فيه المعلمة عن النبات وأجزائه وخصائصه .

اقتربت هدى من وردة حمراء بدأت تتفتح على نسمات الصباح التي داعبت أوراقها . . ونشرت في الجو عبيرها الأخاذ . . لمستها هدى برفق وهتفت :

ـ يا الله . . ! ! ما أروع هذا المنظر ! ! من أين خرج كل هذا الجمال ؟ !

من بذرة صغيرة . . وتراب وماء . . ؟ !

من علم البذرة أن تمتص الماء والغذاء صافياً من وسط الوحل ؟ !

من أعطاها القدرة على النمو والانقسام حتى خرج منها الجذر والساق ؟ !

من علم الجذر أن يتجه إلى الأسفل ويغمس رأسه في أعماق التراب ليؤدي دوره في امتصاص الغذاء راضياً بحظه في أن يكون مخفياً لا يحظى بنظرات الاعجاب ومع ذلك يعمل

وإلا ماتت كل أجزاء النبات. . ؟!

من علم الساق أن يتجه إلى الأعلى ويقف صامداً في وجه الرياح متحملاً لفحات الشمس اللاهبة ولسعات البرد القارسة ناشطاً في نقل الغذاء بين الجذور وسائر أقسام النبات. . ؟!

من علم هذه الأوراق اللطيفة الخضر أن تكون هي الرئات التي تتنفس الهواء وتساهم في تنقية الهواء للإنسان. . ؟!

هل تذكرين يا سمية أن النبات يتنفس في النهار بشكل معاكس للإنسان. . ؟ فهو يأخذ في شهيقه غاز الفحم ويطرح في زفيره غاز الأوكسجين. . إنه الصديق الوفي للإنسان لأنه يؤمن له أنفاساً نقية في النهار ؟!

هتفت سمية:

ـ أجل يا هدى. . بل قولي أيضاً:

من علم هذه الأوراق الصغيرة أن تكون مصانع لليخضور[1] تديرها أشعة الشمس بيدها السحرية فتقوم بتركيب كيميائي معقد ينتج للنبات مادته الأساسية والتي يستفيد منها الإنسان كثيراً ؟!

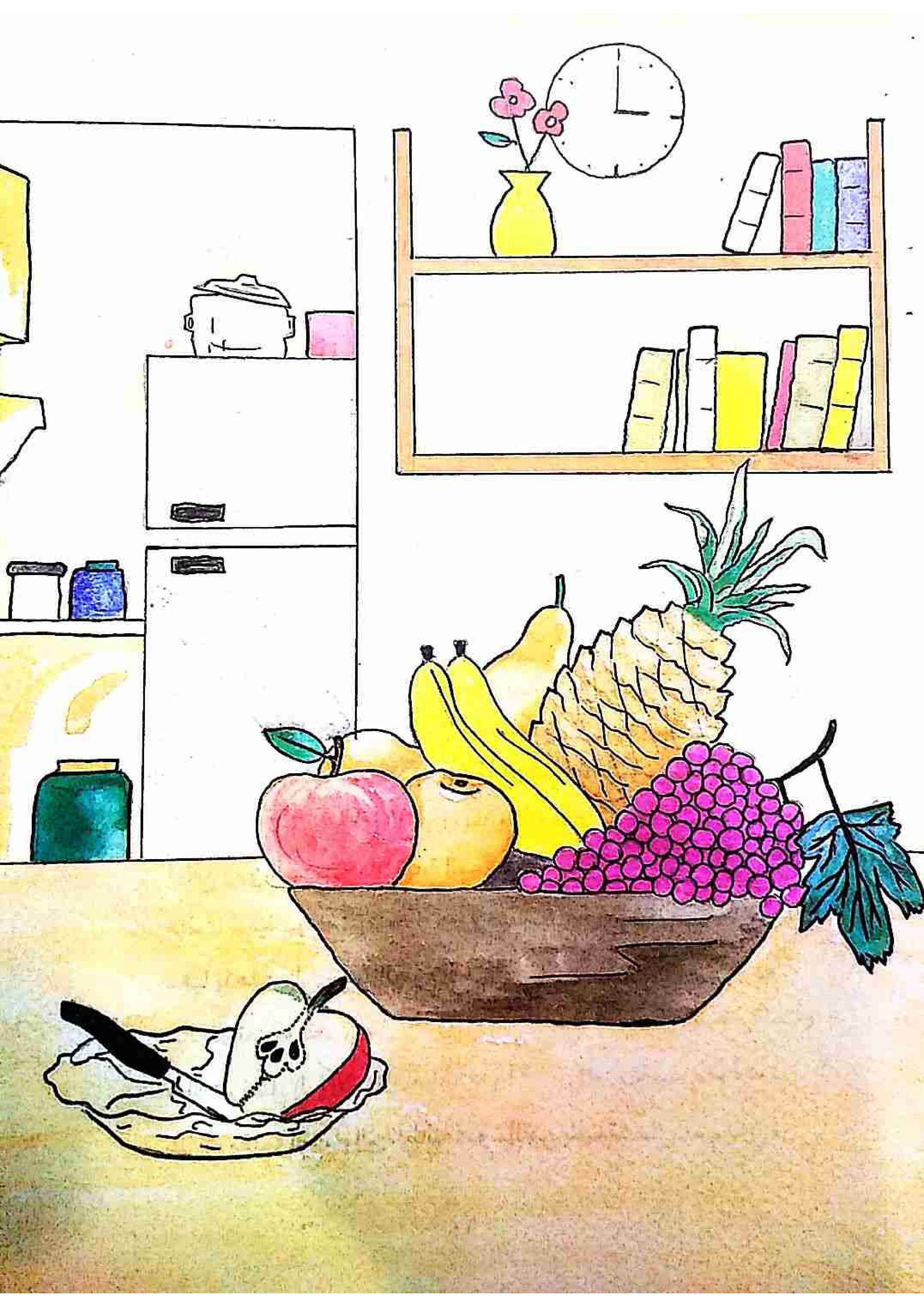
ـ وهذه الزهرة الطروب التي تتمايل على إيقاع النسيم المرح برشاقة. . من أبدع ألوانها ؟!

---

(١) اليخضور (السيليلوز) وهو المادة الخضراء التي يتركب منها النبات.



الأوراق
الساق
الجذر



ومن منحها هذا العطر الفواح الذي ينتشي به الإنسان

والذي تجتذب به أسراب النحل والفراش ليرتشف من رحيقها . .

ويلقح أجزاءها حتى تنتج البذور والثمار ؟!

ـ والثمار يا هدى . . هل نسيت الثمار ؟!

ـ كيف أنسى . . ونحن نستمتع في كل يوم بأطايب الفاكهة والثمار ؟!

عجباً لهذه الثمرة ؟!

كيف صنعت من التراب والماء طعماً حلواً سائغاً ونكهة تميزها من سائر الأنواع ؟!

ومن أين خرجت كل هذه الأصناف من الثمرات التي تختلف في ألوانها وأشكالها وطعومها . . ؟!

ولماذا كل هذا الإبداع والتنوع والاختلاف ؟!

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّـٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٩].

ارتفع رنين الجرس معلناً نهاية الفسحة . .

هتفت سمية ببهجة :

ـ هيا يا هدى إلى حصة العلوم الحبيبة .

فبالعلم نعرف الله . .

وبالعلم نصل إلى الإيمان .

نظرت معلمة العلوم إلى الطالبات وسألتهن باسمة :

ـ هل تحببن العسل يا بناتي ؟

سارعت الطالبات بالإجابة :

ـ أجل . . إنه لذيذ .

ـ من أين نأتي بالعسل ؟

رفعت هدى اصبعها ثم أجابت :

ـ النحلة هي التي تصنع لنا العسل .

ـ عظيم يا هدى . . سننطلق اليوم في رحلة خيالية إلى خلية النحل . . أقول رحلة خيالية وليست حقيقية لأنني أخشى عليكن من إبر النحل اللاسعة التي زودها الله بها كي تدافع بها عن مملكتها وثروتها .

سألت سمية :

ـ فكيف يحصل الناس على العسل إذن ؟ !

ـ إن الذين يربون النحل يا سمية يعرفون عاداته ويختارون الأوقات التي تخرج فيها أسراب النحل العاملة إلى الحقول لتجمع الرحيق . .

كما أنهم يستعملون أقنعة وقفازات واقية .

كانت المعلمة تتكلم وهي تعلق لوحة كبيرة على السبورة فيها رسوم توضيحية لأنواع النحل وأجزاء خليته وأجزاء جسم النحلة العاملة .

ها هي المعلمة تنطلق في الشرح . . وهدى تتابع الرحلة بشغف وتتسائل مدهوشة :

ـ ما أعظم مملكة النحل . . ؟! وما أشد تنظيمها ؟!

من علم هذه الحشرات الصغيرة كيف تبني خليتها ؟!

هل تعلمت هذه الحشرات أصول علم الهندسة ؟!

وأين الأدوات الهندسية التي تستعملها في إنشاء عيون الشمع السداسية المتراصة بتناسق دقيق ؟!

ومن علمها فنون التربية وحب الأمهات وهي تعتني باليرقات الصغيرات ؟!

وكيف استطاعت أن تبتكر غذاء خاصاً هو (الهلام الملكي) يعطى ليرقة واحدة فإذا بها تنمو بشكل متفرد عن سائر النحلات لتصبح ملكة . . ؟!

أي تخصص في علم التغذية قد حصلت عليه . . ؟!

من ألهمها أن تتقاسم العمل بنظام اجتماعي مدهش . .

ففريق يتولى البناء . . !!

وآخر يتولى الخدمة في الخلية فينظفها . . !!

وفريق يعتني بالصغار وإطعامهم والعناية بغرفهم . . !!

وفريق ينطلق لاستكشاف الحقول ومواضع الورود والأزهار . . !!

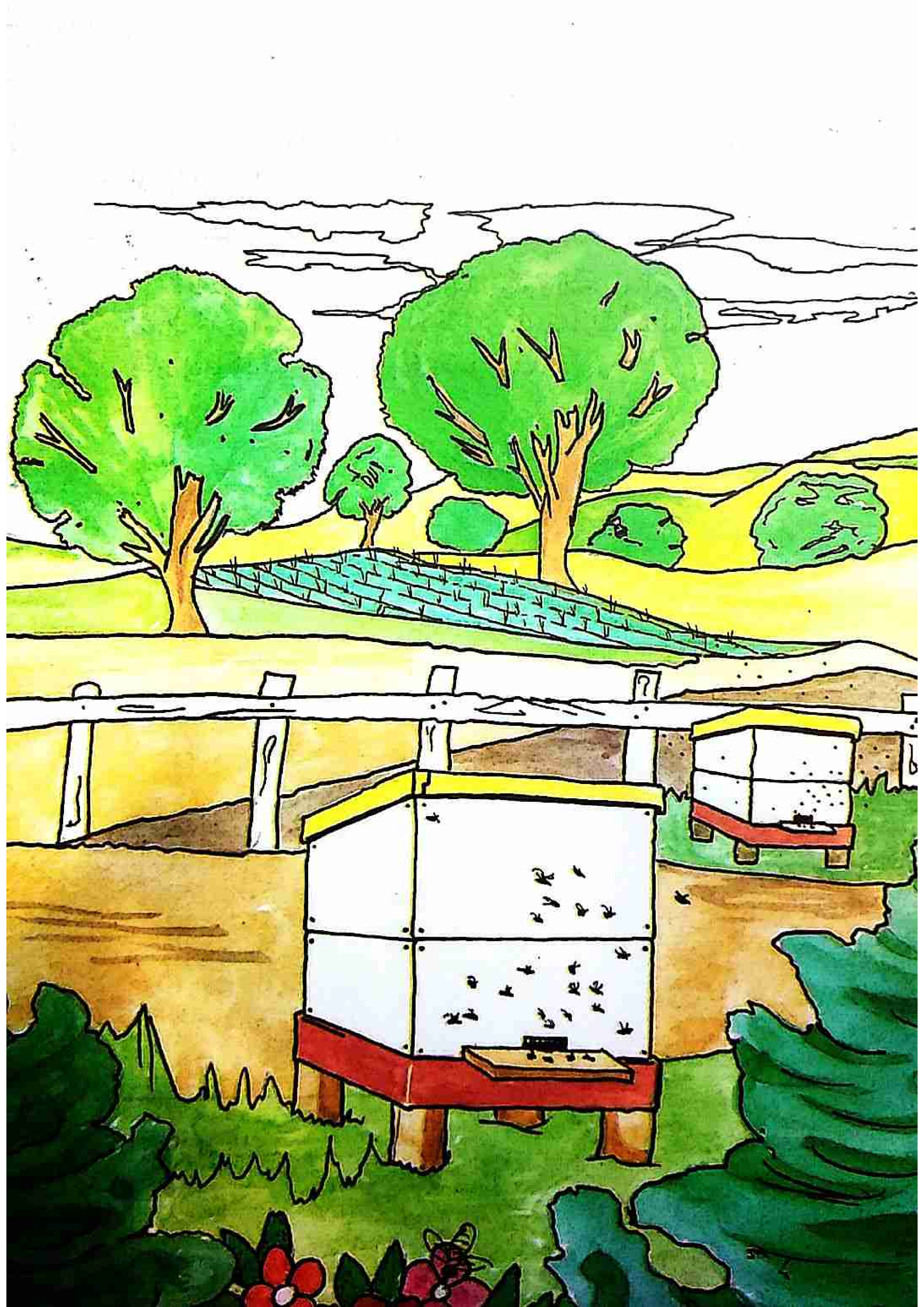
وفريق يتولى حراسة الخلية . . !!

وآخر يتولى القتال لحمايتها من عدو مهاجم . . !!

ومن علم النحلة المستكشفة لغة الرقص بحيث تحدد لزميلاتها برقصتها مكان الحقل الذي عثرت عليه ؟!

وأي مصنع عجيب قد اندس في هذا الجسم الضئيل . . ؟!

فإذا بالشمع ينسكب منه في قوالب هذا البناء المتقن . . !!



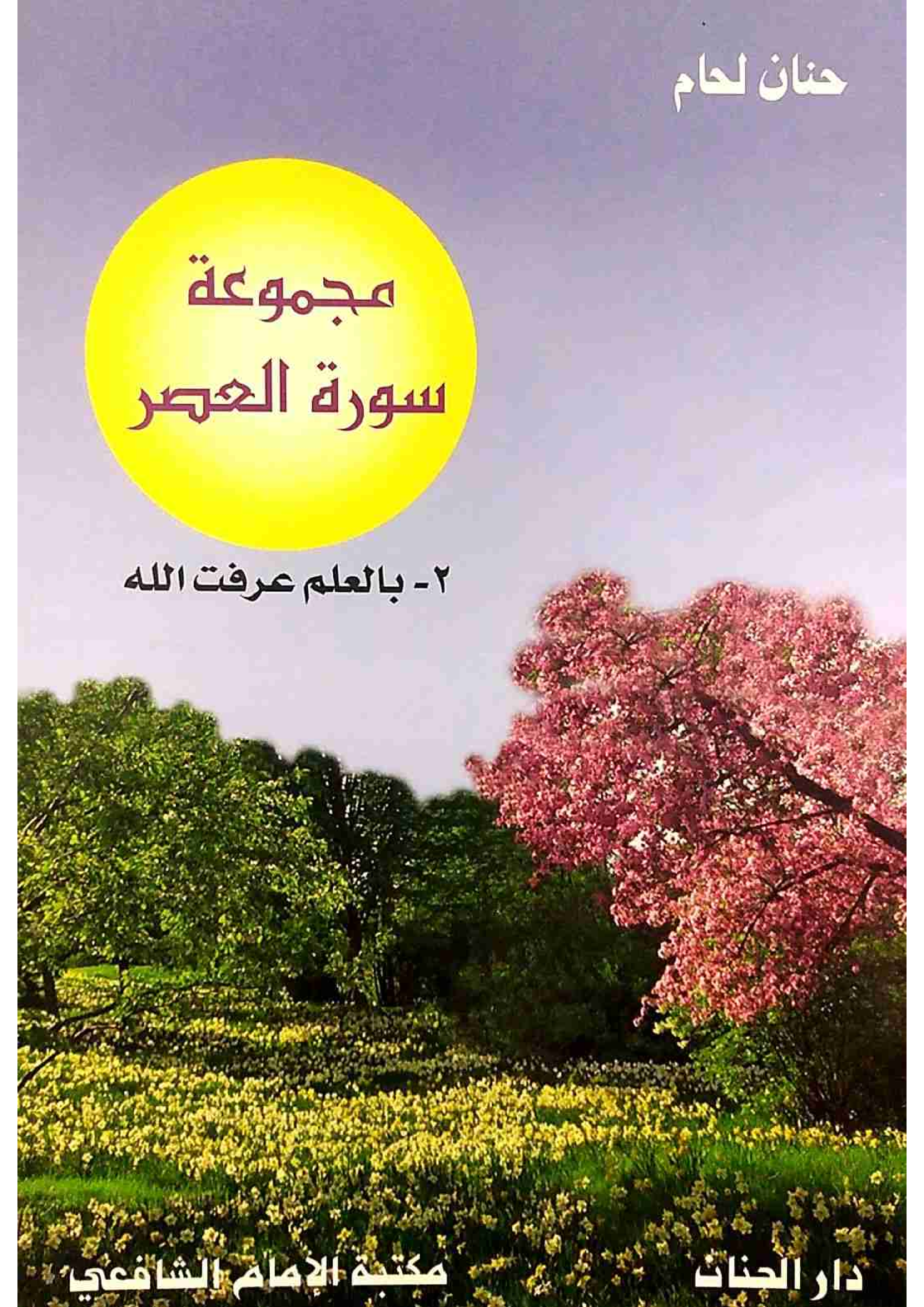
وإذا بالعسل يتدفق من أفواه تلك الحشرات اللواتي لا يعرفن الأثرة[1] أو الكلل . . ! !

انتبهت هدى من دهشتها على صوت المعلمة تتلو الآيات :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٦٨ـ٦٩] .

* * *

(١) الأثرة: الأنانية.


حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٢- بالعلم عرفت الله
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٢)

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

العلم

بالعلم عرفت الله

حنان لحام

كانت هدى تستمتع بنزهتها مع أسرتها في إحدى مزارع وادي فاطمة الخصيب.

انطلق أخوها الصغير ياسر يعدو نحو بركة البط فأسرعت خلفه وهي تخشى عليه أن تزل قدمه فيقع فيها..

راح ياسر يمطرها بسيل من الأسئلة عن البط والإوز وحظائر الدجاج وقطعان الغنم السارحة نحو المرعى.. وزريبة البقر التي اقترب منها متهيباً وهو يتشبث بثوب أخته..

وقف خلف السياج الشبكي متسائلاً:

ـ هدى.. هل ستنطحنا البقرة إذا اقتربنا لنتفرج عليها..؟!

ضحكت هدى وقالت:

ـ الثور هو صاحب القرون القوية.. ولكن لا تخف يا ياسر إنه لا يهاجم إلا من يحاول إيذاءه.. وأنت ولد طيب لا تؤذي الحيوانات..

ـ ولكني لا أحب الثور.. ولا البقرة.

تراجع ياسر مذعوراً عندما خار الثور فجأة.. وازداد تشبثاً بأخته وهو يقول:

ـ يا لها من حيوانات قبيحة الصوت والمنظر.. أنا لا أحبها..

ـ لا تخف يا ياسر.. إنها لن تؤذينا.. تعال لأريك ابن البقرة الصغير (العجل).. انظر كم هو لطيف وجميل..

لاحت ابتسامة بريئة على وجه ياسر وهو يراقب العجل بسكون.. قفز العجل برشاقة واندس تحت بطن أمه.. التقم ثديها وأخذ يضربه برأسه ضربات لطيفة كأنه يستدر حنان أمه ولبنها..


قمح
شعير
قمح

هتف ياسر مشيراً بيده وعيناه تلمعان:

ـ انظري يا هدى.. إنه يرضع من ثدي أمه كما يرضع الطفل!!

لماذا لا تحمله كما تحمل الأم طفلها..؟!

ضحكت هدى وقالت:

ـ وكيف تحمله وهي تقف على أربع: يديها ورجليها..؟!

ولماذا تحمله طالما أنه يستطيع أن يمشي على رجليه..؟!

أقبل المزارع يحمل دلواً كبيراً.. ودخل إلى الحظيرة وقد شمر عن ساعديه.. هتف ياسر:

ـ ماذا سيفعل يا هدى؟!

ـ سيحلب البقرات.. انظر.

كان ياسر يراقب المزارع بفضول واهتمام كبيرين.. يتابع حركاته وقد جلس خلف البقرة ووضع الدلو تحت ضرعها قائلاً

ـ بسم الله الرحمن الرحيم.

وأمسك الضرع بيديه فبدأ اللبن ينساب نحو الدلو في خطين رفيعين أبيضين.

ابتسمت هدى وهي تتأمل وجه أخيها البريء مدهوشاً مستثاراً.. وقالت:

ـ هل رأيت من أين يأتي اللبن الذي تحبه وتسرع إلى شربه كل يوم في الصباح والمساء؟

التفت إليها باستغراب:

ـ أهذا هو اللبن الذي نشربه ؟!

ـ أجل . . أرأيت كم تحبنا البقرة . . ؟

إنها تمنحنا قسماً كبيراً من غذاء أولادها فكيف لا نحبها . . ؟!

سكت ياسر قليلاً، ثم عاد إلى السؤال:

ـ ولكن من أين تأتي البقرة باللبن ؟! هل تشرب لبناً ثم تخرجه من ضرعها ؟

ـ لا يا ياسر . . انظر إلى طعامها، إنه موضوع أمامها في المذود.

ـ إنه عشب أخضر . . وما هذا الشيء الناعم الأصفر ؟

ـ إنه التبن . . إن البقرة لا تأكل إلا النباتات ولا تشرب إلا الماء.

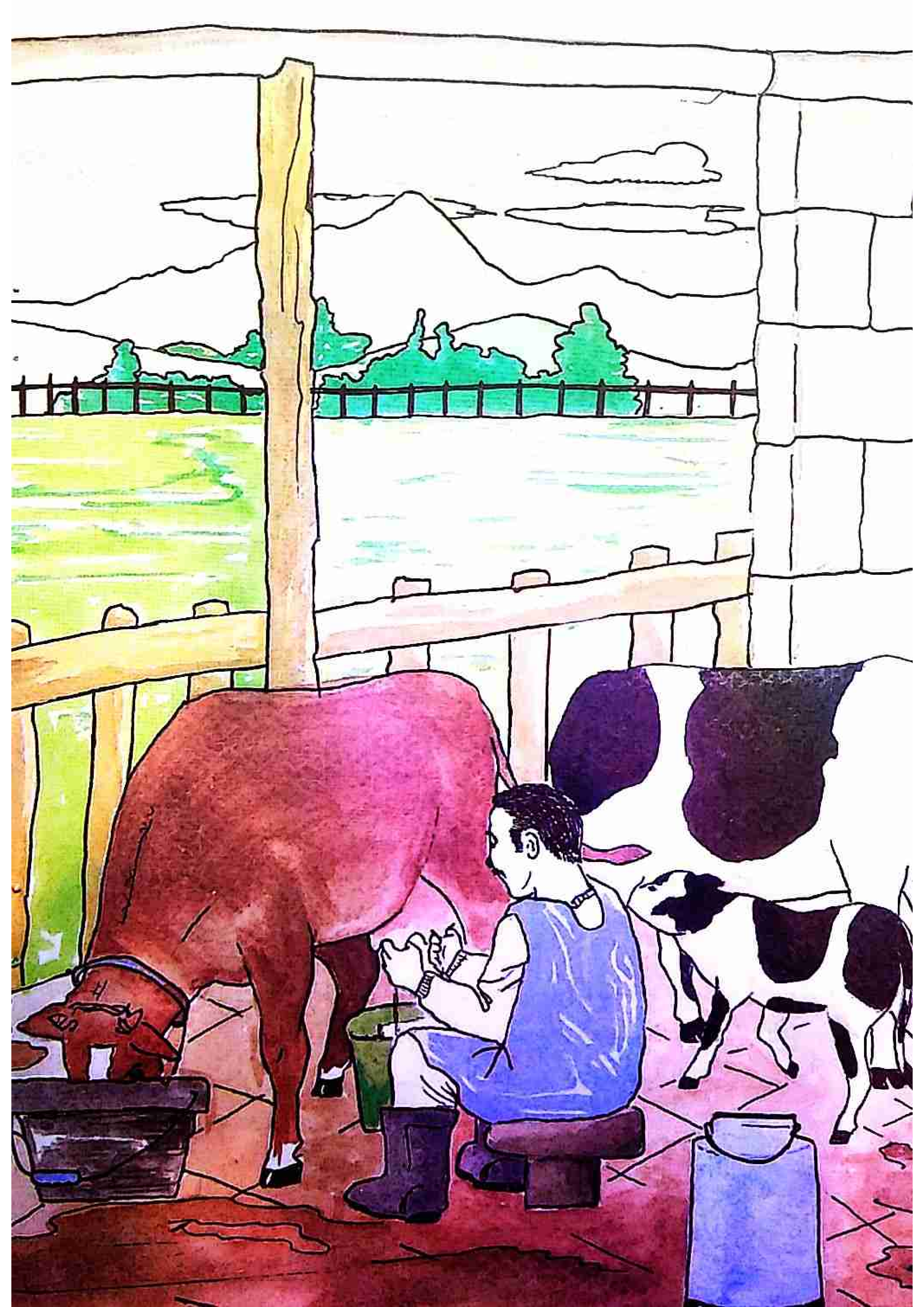
ـ فكيف يخرج من ضرعها اللبن ؟!

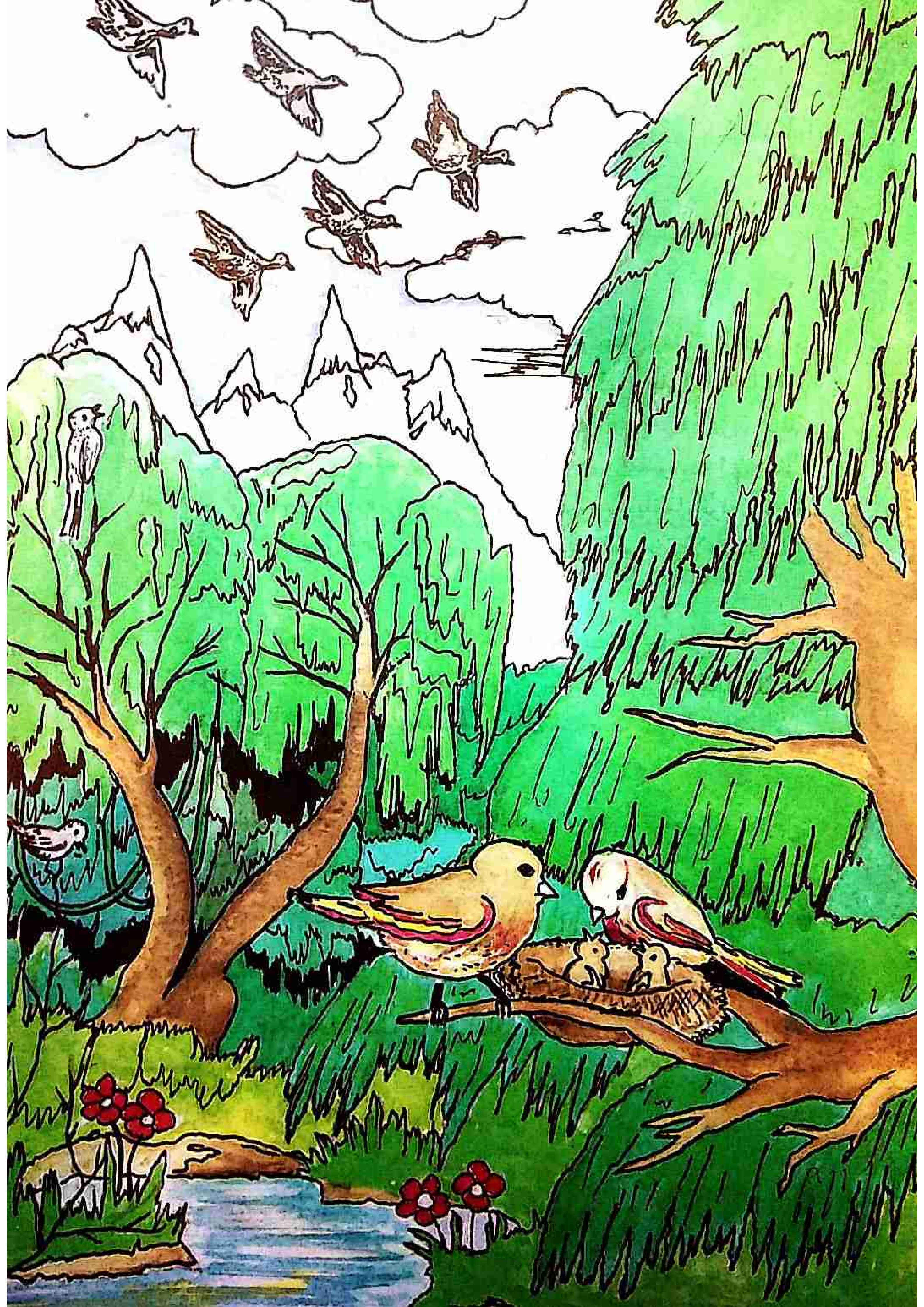
سكتت هدى وقد أحست بالعجز عن الجواب . . وعاد ياسر بالسؤال.

ـ إهدأ يا ياسر . . أنا لا أعرف كيف تصنع البقرة اللبن . . غداً لما نكبر سندرس العلوم لنكشف هذا اللغز العجيب الذي وضعه الله في البقرة.

سكت ياسر وعاد إلى مراقبة المشهد الذي كان يثير فيه كل الفضول.

وانطلقت هدى في تأملاتها الخاشعة . . أي مصنع غريب يتكور في ضرع هذه البقرة فيحول العشب المهضوم والماء والدم الذي ينقل الغذاء . . إلى لبن سائغ الطعم لذيذ المذاق . . يعتمد عليه الإنسان كغذاء أساسي في حياته . . ؟! فسبحان الخالق القادر الذي قال:





﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾[1] . [النحل: ٦٦].

هدى تحب البرنامج العلمي الذي يقدمه الرائي بعد صلاة الجمعة.

كان البرنامج عن الطيور في العالم..

ها هي ذي تراقب الطيور وأنواعها بألوانها البديعة وأصواتها المطربة.. تتهادى بين الأشجار.. وتحلق فوق الحقول باحثة عن رزقها.. تبني أعشاشها فوق أغصان الشجر. وتحيا فيها حياة أسرية حافلة بالحنو والوفاء. الأم تحتضن البيض وترعاه حتى يفقس.. ثم يسعى الوالدان في جلب الطعام.. ولا يهنأ لهما بال حتى يلقما أفواه الفراخ الجائعة إلى أن تشبع.. حتى إذا كبرت درباها على الطيران والاعتماد على النفس..

ثم ها هي الطيور تحس بوادر البرد في الخريف فترحل في جماعات تاركة موطنها.. لتعود إليه مرة أخرى في الربيع.. وتطير مسافات طويلة من موطن إلى آخر باحثة عن الدفء والرزق.. حيث تبني أعشاشها من جديد.

قالت هدى لأمها وهي تتأمل سرب الطيور المهاجر في طيرانه الطويل يقبض أجنحته ويبسطها:

ـ ما أروع هذا المشهد يا أماه..!

كيف يتمكن هذا الطائر الصغير من الطيران لمسافات شاسعة..؟!

وكيف يقوى جناحاه اللطيفان على ذلك؟!

---

(١) الفرث: الفضلات التي في أمعاء الحيوان.

ـ سبحان الله يا هدى . . إن الله زوده بالقدرة على ذلك . .

انظري إلى شكل جسمه وجناحيه وذيله . . كل ريشة في الجناحين حدد لها الطول المناسب والمكان المناسب . . وإلا اختلت قدرته على الطيران . .

وها نحن أخيراً قد تعلمنا منه الطيران . . وصنعنا الطائرات بأشكال مختلفة .

ـ لقد قرأت يا أمي عن المحاولات التي بذلها الإنسان في هذا المجال .

ففي البداية حاول أن يركب لجسمه جناحين كالطائر . . فسقط .

واستعمل المنطاد وواجه صعوبات كثيرة . .

واستمر يدرس ويحاول حتى كشف قوانين الجاذبية وسقوط الأجسام . . ودرس خصائص المعادن . . وصنع المحركات . . وصمم الطائرات مقلداً فيها شكل الطير . .

ابتسمت الأم وقالت :

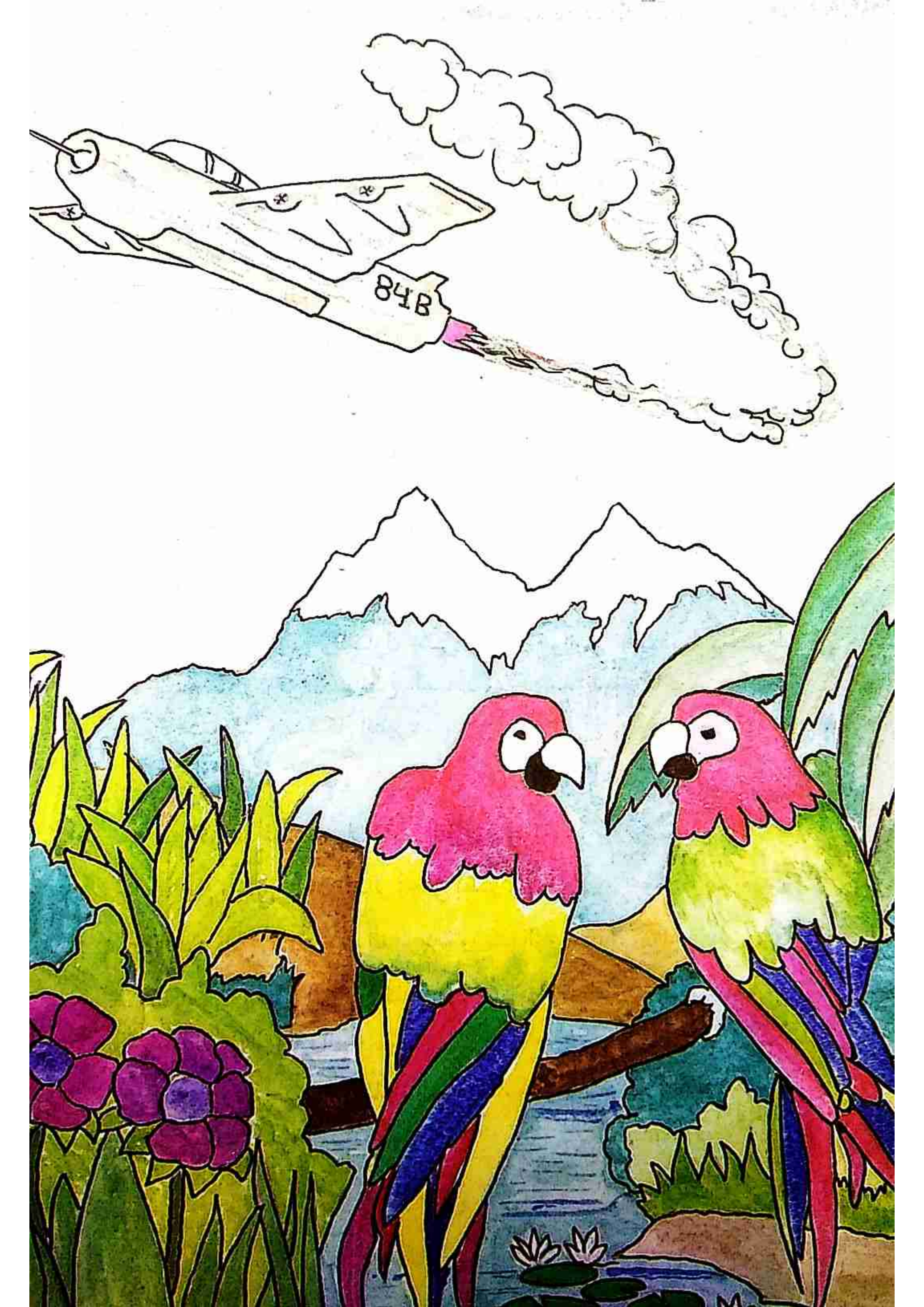
ـ ولكن ما أشد الاختلاف بين الطائر والطائرة . .

ـ أجل يا أمي . . إن الطائر أجمل بكثير . .

انظري إلى رشاقته وألوانه الرائعة وريشه الناعم . . !

ـ وهو لا يحتاج إلى محركات ووقود . . ولا يخلف في الجو سحباً من الدخان تلوث الهواء والبيئة .

ـ وبدلاً من ضجيج الطائرة المزعج . . يطربنا بتغريده وألحانه العذبة في الصباح والمساء .


84B



ـ حقاً إن هذا الكائن الصغير اللطيف يملأ الحياة من حولنا بهجة . .

بينما تفجعنا كوارث الطيران والطائرات بين حين وآخر . .

ـ ما أعظم ابداع الله في خلقه . . !!

أحس كأنني فهمت أكثر قول الله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴾ [الملك : ١٩] .

اقتربت هدى من أبيها وكان مستغرقاً في قراءة كتاب . .

وقفت بين يديه فلم ينتبه لها . . قرأت عنوان الكتاب على الغلاف :

الطب محراب الإيمان . وشدتها صورة الدماغ التي عليه .

قالت بتهيب :

ـ أتسمح لي يا أبي أن أقطع عليك قراءتك ؟

التفت إليها باسماً :

ـ أهلاً هدى . . ماذا تريدين ؟

ـ أريد أن تشركني معك في الاستفادة من هذا الكتاب . .

ضحك الأب وقال :

ـ أهلاً أهلاً بابنتي التي تحب العلوم . . تعالي واجلسي إلى جانبي .

أسرعت تندس بجوار أبيها على الأريكة . سألته والفرح يغمرها :

ـ عن أي شيء يتحدث هذا الكتاب ؟

ـ إنه يتحدث عن جسم الإنسان وما فيه من أعاجيب .

انظري يا هدى هنا يتحدث عن الحواس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس (أو حواس الجلد).

هذه هي الأذن إنها بسيطة ولطيفة المظهر من الخارج.. ولكن ما كان يمكن أن نسمع الأصوات لولا بقية أجزائها المعقدة داخل الجمجمة..

انظري.. من هنا يدخل الصوت فيصطدم بغشاء الطبل.. فتهتز العظيمات الدقيقة من ورائه مرسلة أمواج الصوت عبر دهاليز دقيقة وحساسة إلى الدماغ.. وهناك يترجمها الدماغ إلى معانٍ مفهومة..

- وأين العين يا أبي؟

- انظري ها هي ذي..

دققت هدى بالصورة وقالت بحيرة:

- لا أفهم هذه الصورة يا أبي..

ضحك الأب وقال:

- معك حق فإننا لا نرى في الواقع إلا الجزء البسيط الأمامي من العين.. أما هذه الكرة الغامضة فإننا لا نراها لأنها تستقر في داخل الجمجمة.

- إن عين الإنسان أجمل بكثير من هذا الشكل..

أين الأجفان والأهداب والألوان..؟

أين نظرات الأم الحانية الدافئة..؟

وأين البسمة البريئة التي أراها في عيني أخي..؟

أين النظرة الغاضبة التي يكاد يتطاير منها الشرر..؟

قل لي يا أبي كيف يرتسم كل ذلك في العيون؟

كيف تلمع العيون بالذكاء . . ؟!

وكيف يرى بريق السعادة فيها ؟!

وكيف يبدو ذبول الحزن وسكونه العميق فيها ؟!

ابتسم الأب وقال مداعباً:

ـ لم أعد أعرف أطالبة علم أم شعر أنت ؟!

قالت متحمسةً

ـ أريد أن أعرف كل شيء، يا أبي . . إن هذا يزيدني إيماناً وحباً لله . .

أرجوك أخبرني كيف نبصر بهذه العين . . ؟!

ـ هذا موضوع كبير . . سأحاول أن أختصره لك بكلمات . .

يمكن أن تشبه العين بعدسة آلة التصوير. حين نضغط على زرها تنقل العدسة الصورة وتطبعها على الفيلم . . وهكذا العين:

تلتقط المشهد وتطبعه على الجدار الداخلي الخلفي لها . .

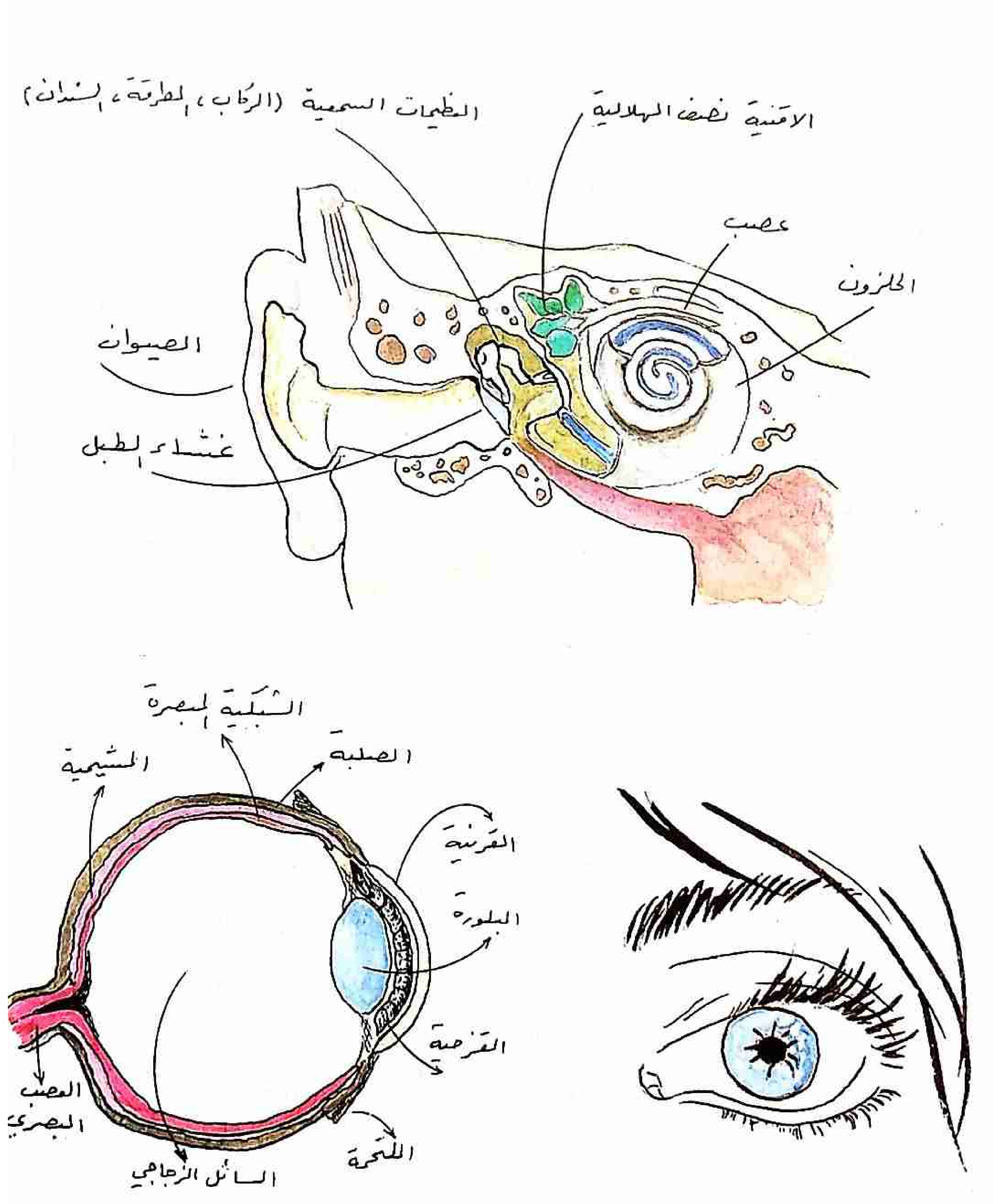
ـ وأين يتم تحميض الصورة ؟

ـ تنقل إلى الدماغ حيث تتم الرؤية ويحتفظ بالصورة والأفلام في (أرشيف) الذاكرة.

ـ ولكن هذا لا يأخذ وقتاً . . فنحن نرى المشهد الذي أمامنا مباشرة . . ؟!

ـ هذا يدل على براعة الدماغ والعين في أداء العمل . .

ـ ولكن أليس عجيباً أن يقوم الدماغ بكل هذه الأعمال مع بعضها وفي وقت قصير . . ؟!



«هَذا خَلق الله فَأروني مَاذا خَلق الذينَ مِن دُونه»

إنه يحقق رؤية المشهد . .

وسماع الأصوات والأحاديث التي تجري فيه . .

ويفكر بالكلام المناسب الذي يمكن أن يشارك فيه . .

ويتذكر مواقف ومشاهد مشابهة حتى كأنه يستعرض فيلماً من الماضي . .

تابع أبوها :

ـ ويصدر الأوامر إلى الأعضاء والعضلات كي تستجيب بالانفعال المناسب . . فإما أن يتقطب الجبين وتنقبض الأسارير . . أو يحمر الوجه أو يَصْفَرَّ . . أو تسري رعدة الخوف فتظهر القشعريرة في الجلد . .

كانت هدى تصغي باهتمام ودهشة . . قالت بعد تفكير :

ـ ما أعجب هذا الدماغ يا أبي . . !

وما أعجب جسم الإنسان . . !

قال أبوها :

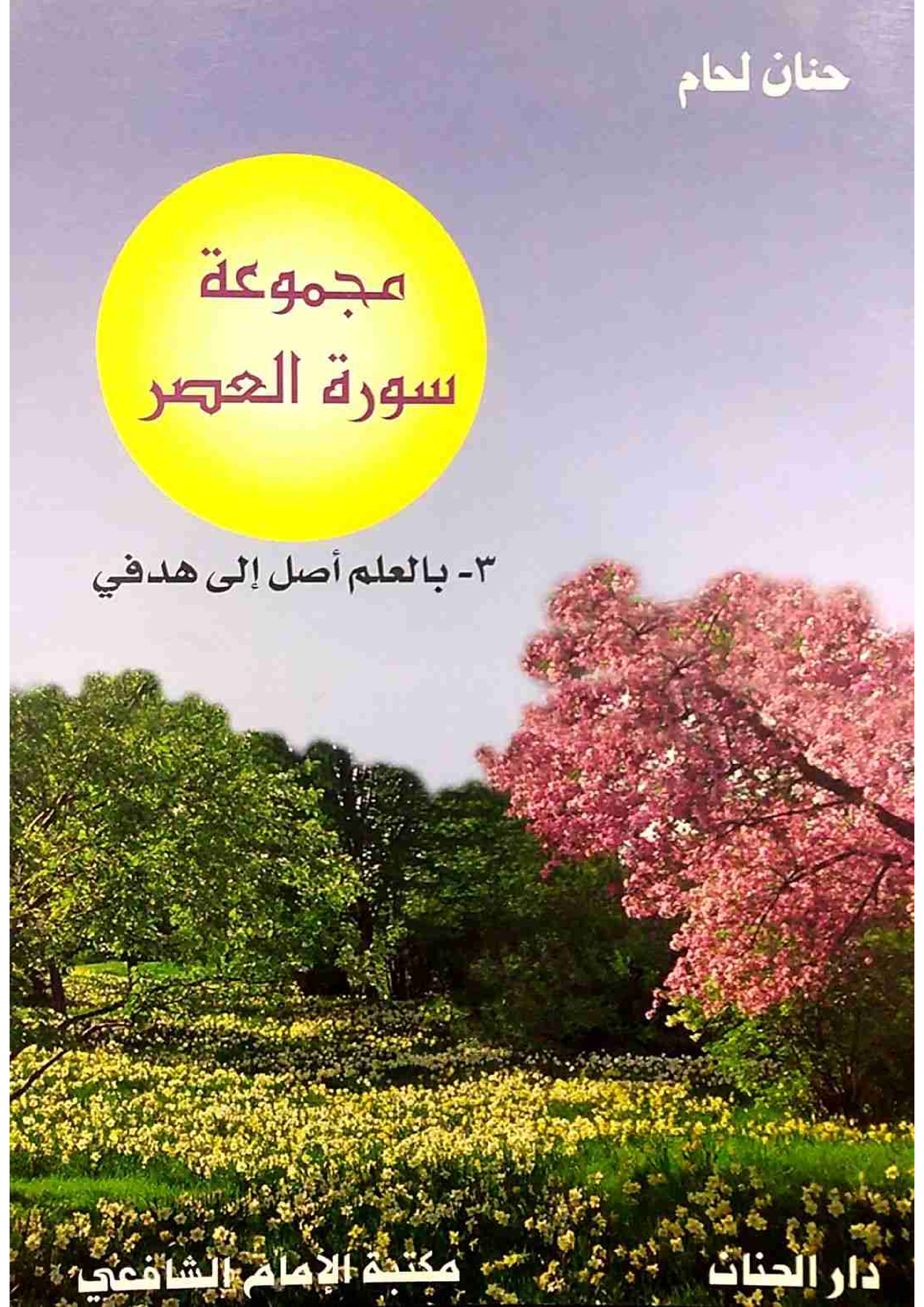
ـ انظري ماذا كتب مؤلف الكتاب تحت صورة الدماغ :

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] .

فسبحان الله تعالى القائل في كتابه :

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ [الملك : ٢٣] .

* * *


حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٣- بالعلم أصل إلى هدفي
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٣)

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

العلم

بالعلم أصل إلى هدفي

حنان لحام

بالعلم أصل إلى رضى الله

كان صالح سعيداً باختياره مرشداً مرافقاً لبعثة الحج.

فما أسعد الرحلة.. وما أكرم الصحب.. إنهم أناس نفضوا أيديهم من الدنيا وقصدوا بيت الله طالبين المغفرة والقبول. فما أعظم الإخلاص المتأجج.. إنه يسمو بالروح إلى مدارج عليا. ويمنح النفس فسحة صافية خالصة من كل شوائب الدنيا.

ومع ذلك فقد تعرض صالح لمواقف آلمته كثيراً.. كان يكتشف فيها كيف يضيع الجهل كل جمال الإخلاص ويذهب بحلاوته..

فقد جاءه يوماً رجلان يختصمان.. قال أحدهما:

- ايها الأستاذ الكريم.. إليك أشكو هذا الرجل الذي يريد أن يغير دين الله. فلقد زعم أنه يمكنني الصلاة بدون وضوء..!!

ويريد أن يغير أوقات الصلاة..!!

نظر صالح إلى الآخر مستفهماً.. فابتسم الرجل وقال:

- لقد خرجنا قاصدين الحج من بلاد بعيدة في سيارة كبيرة.. وفي بعض الطريق قل الماء الذي معنا وأصبحنا نقتر في استعماله ليروي ظمأنا.. وأدركتنا صلاة الظهر.. فأصر صاحبنا هذا على إيقاف السيارة.. واستعمال الماء في الوضوء لأداء الصلاة..

وحاولنا جهدنا إقناعه بأن التيمم في هذه الحال هو الأفضل.. أو أن يتركنا نواصل المسير إلى وقت العصر عسى أن نصل إلى مكان نتزود فيه

من الماء.. وعندها نجمع بين الظهر والعصر كما رخص بذلك رسول الله ﷺ ولكن دون جدوى..

سأل صالح باستغراب:

- وماذا فعل بعد ذلك؟!

- لقد اضطررنا أن نتوقف له حتى توضأ وضوءاً سابغاً استهلك فيه معظم الماء.. وأدى صلاته. وتحملنا من الحر والظمأ بعد ذلك ما الله أعلم به.. ولولا رحمة الله لهلكنا.

قال الأول:

- لقد علمني أبي منذ صغري أن من أحب الأعمال إلى الله إسباغ الوضوء والصلاة على وقتها.. وهؤلاء يريدون أن يغيروا الدين..!!

قال صالح:

- يرحمك الله يا أخي ويغفر لك.. لقد عرضت نفسك وإخوانك للهلاك بسبب جهلك ببعض أحكام دينك. ولو هلك أحدهم لكنت أنت المسؤول عنه أمام الله..

- كيف تقول هذا والأعمار بيد الله؟!

- لأن رسول الله ﷺ قال ما يشبه ذلك لجماعة من أصحابه كانوا في سفر فشج أحدهم في رأسه وكان عليه أن يغتسل فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء فاغتسل فمات.. فلما قدموا على رسول الله ﷺ أُخبرَ بذلك فقال ﷺ: «قتلوه قتلهم الله.. ألا سألوا إذا لم يعلموا؟ فإنما شفاء العِيِّ (الجهل) السؤال. إنما كان يكفيه أن يتيمم ويعصب على جرحه خرقة ثم

يمسح عليه ويغسل سائر جسده»[١].

وجاءه رجل يوماً متهللاً مستبشراً يقول:

ـ حقاً لقد أكرمني الله..

ـ الحمد لله. وبأي شيء أكرمك الله يا أخي؟ فنعم الله كثيرة لا تحصى..

ـ لقد وصلت إلى الحجر الأسود رغم كل الزحام وقبلته ومرغت وجهي به.

ـ سبحان الله..! وكيف استطعت ذلك في هذا الزحام؟!

ـ أنا شاب قوي كما تراني.. لقد دافعت الناس وأزحتهم عني ووصلت..

نظر صالح إليه بحزن وأسى وقال:

ـ وتزعم أن الله أكرمك بإيذاء المسلمين..؟!

بل إن الله أكرمك بنعمة القوة والشباب.. ولكنك أسأت إلى نفسك بها حين آذيت بها المسلمين..!!

أتعلم أن أذية المسلم حرام.. «كل المسلم على المسلم حرام»..؟!

وأن المسلم الحقيقي كما قال رسول الله ﷺ «من سلم المسلمون من لسانه ويده»؟!

بينما تقبيل الحجر الأسود سنة..

فقد فعلت حراماً كي تصل إلى السنة. فهل تعتبر هذا قربى من الله؟!

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطني.

وكم سمع من أفواه الحجاج أخباراً عجيبة . .

فأحدهم قد حصل على البطاقة الصحية المطلوبة لإكمال الأوراق اللازمة لمعاملة الحج دون أن يأخذ اللقاح المضاد للأمراض. فقد خدمه أحد أصدقائه بإخراج البطاقة وتمكن من التملص ببراعة من أخذ اللقاح . . ويعتبر ذلك تيسيراً من الله لمعاملته . . ! !

ولا يدري أنه قد عصى الله ورسوله وعرض نفسه للإصابة بالأمراض والله تعالى يقول: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] ؟!

وآخر كان يحدث أصحابه أنه جاء ليحج للمرة الخامسة . . وله ابن شاب طلب مساعدته في النفقة كي يتمكن من الزواج . . لكن الأب آثر أن يدفع المال في نفقة حجه بدلاً من أن يزوج ابنه . . ! ! وهو يظن بأنه يرضي الله في ذلك أكثر . .

لأنه لا يعلم أن الله فرض على القادرين مساعدة الشباب على الزواج . .

وكم رأى من أخطاء المسلمين في قضية النظافة . . فهم لا يتورعون عن إلقاء فضلاتهم وقمامتهم هنا أو هناك . . حتى تبدو الشوارع في موسم الحج في حالة يرثى لها . . ولو تعلموا دينهم لفعلوا عكس ذلك فكنسوا الشوارع لأن رسول الله ﷺ يقول: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة» .

ولن ينسى صالح ذلك اليوم الذي أصيب فيه أحد مرافقيه بضربة شمس . . فأسرع به مع بعض إخوانه إلى المستوصف القريب. وصادف ذلك وقت صلاة. وكان الطبيب المناوب يؤدي الصلاة . . فلم يخرج إليهم إلا بعد أن صلى من السنن ما شاء له الله . . وسبَّح وكبَّر وهلَّل . . وكان صالح متحرقاً كأنه يتقلب على الجمر وهو يرى حالة المصاب تزداد

سوءاً. فلم يكد يرى الطبيب حتى بادره بعتاب حار:

ـ أتظن يا أخي أن صلاة السنة أحب إلى الله من إنقاذ أرواح البشر ؟!

هز صالح رأسه بأسى وهو يخاطب نفسه:

من أجل ذلك قال رسول الله ﷺ «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم».

ورحم الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الذي قال:

(من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح).

العلم يوفر الجهد والوقت

ـ أين تذهب يا عامر.. ؟

ـ إنني مدعو لحضور حفلة بمناسبة نجاح صديقي أحمد.. هل نسيت ذلك يا أمي.. ؟!

ـ أهي تلك الحفلة التي كنتم تستعدون لها أنت وأصدقاؤك ؟

ـ نعم أتمنى أن نوفق في تقديم الفقرات التي تعبنا في تحضيرها..

ابتسمت الأم في سعادة وقالت:

ـ سأدعو لكم بالتوفيق.. انتظر سأعطيك ملابس جديدة تليق بالمناسبة السعيدة.

سألته وهي تناوله ثيابه:

ـ ولكنك لم تذكر لي ماذا أعددتم في برنامج الحفلة ؟

أجابها بحماس:

ـ إنه برنامج حافل يا أمي فيه الكلمات والتمثيليات والمسابقات والأناشيد . .

نظر إلى الساعة في يده . وقال :

ـ لا بد من الاستعجال فقد بقي أقل من ساعة على موعد البدء .

ـ وأين يقع بيت صديقك أحمد ؟

ـ إنه في منطقة العزيزية .

ـ وهل تعرف عنوانه ؟

ـ أجل . . لقد زرته مرة مع أصحابي .

ـ هل ستذهب وحدك ؟

ـ نعم . . سأركب سيارة أجرة . . لقد اتفقنا على أن نلتقي هناك حتى لا نضيع الوقت في انتظار بعضنا . .

كان عامر قد انتهى من ارتداء ملابسه . نظر في المرآة وسأل أمه ضاحكاً :

ـ كيف أنا الآن ؟

ـ عامر جديد . . وفي أجمل صورة .

ـ وداعاً إذن . . والسلام عليكم ورحمة الله . .

أسرع عامر في الخروج حتى أنه كاد يقع وهو يقفز هابطاً درجات السلم . أشار إلى سيارة أجرة وهو يقول في نفسه : ـ الحمد لله . . كأن السيارة بانتظاري . . لن أتأخر .

ركب في السيارة قائلاً :

ـ منطقة العزيزية من فضلك

تحرك السائق بالسيارة وهو يقول :

ـ تكرم . . ولكن أية منطقة في العزيزية ؟

تساءل عامر :

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعني أن العزيزية منطقة كبيرة وفيها عدة أقسام وشوارع كثيرة . . فهل تريد العزيزية رقم (١) أم (٢) أم (٣) . . ؟

تردد عامر في الإجابة . . ولم يكن يعرف أن العزيزية لها أقسام وأرقام . . وعندما أخذه أصحابه إلى بيت أحمد لم ينتبه إلى ذلك . . لكنه يحفظ شكل الشارع الذي فيه البيت . . وموقع البيت منه ولا بد أنه سيجده . التفت إلى السائق قائلاً :

ـ لنأخذ رقم (١) .

ـ حسنٌ .

انطلق السائق بالسيارة حتى وصل إلى المنطقة المحددة .

والتفت إلى عامر قائلاً :

ـ والآن أي شارع تريد ؟

ـ أرجو أن تتمهل في اجتياز المنطقة حتى أتعرف إلى الشارع الذي أريد .

ـ كما تريد .

قطعت السيارة المنطقة من أولها إلى آخرها ولم يتعرف عامر على مقصده . . فالتفت إلى السائق وقال :

ـ لا بد أنه في المنطقة رقم (٢).

ـ هل أنت متأكد ؟

في الحقيقة لم يكن عامر متأكداً. . ولكنه هز رأسه بالإيجاب وهو يظن أنه سيصل بالمحاولة.

وهكذا انطلقت السيارة تجوب الشوارع بلا جدوى. .

نظر عامر في ساعته. . لقد حان موعد ابتداء الحفلة وهو لم يهتد إلى البيت بعد. . وها هو عداد السيارة يشير إلى الأجرة المطلوبة: أربعين ريالاً. أي معظم المال الذي في جيبه. رأى على الرصيف غرفة للهاتف فطلب من السائق أن يقف عندها ـ ودفع له الحساب خجلاً معتذراً. . ونزل.

اتجه إلى الهاتف وهو يفكر في الحفلة. . ترى هل بدأت. . ؟!

وكيف وقع في هذه الغلطة وظن أنه يعرف العنوان. . ؟!

كان رقم صديقه أحمد مشغولاً باستمرار. . ربما كانوا يسألون عنه في البيت. . وهنا الطامة الكبرى. . إذ لا بد أن تقلق أمه عليه.

وبعد محاولات عديدة في الاتصال رد عليه صديقه أحمد. . هتف وهو يمسح العرق الذي كان يتحدر منه:

ـ السلام عليكم يا أحمد.

ـ عامر. . ؟! وعليكم السلام. . أين أنت يا أخي ؟! لقد اتصلنا ببيتك نسأل عنك عندما تأخرت. . وقالت لنا أمك أنك خرجت منذ أكثر من ساعة. . وهي الآن قلقة عليك. . !!



ـ لقد تهت عن بيتك يا أحمد . . أرجوك أن تعطيني العنوان بدقة . . ولا تنس أن تتصل بأمي بعد ذلك وتطمئنها من فضلك .

ومن حسن الحظ أنه عثر على قلم وقصاصة ورق في جيبه . . كتب عليها العنوان بالتفصيل .

لم يبق في جيبه إلا عشر ريالات . . أوقف سيارة أجرة أخرى وسأل السائق بلطف :

ـ من فضلك يا عمّ . . هل توصلني إلى العزيزية رقم (٤) شارع الخيال ـ مركز التسويق (. . .) . . . بعشر ريالات .

ـ نعم . . تفضل .

عندما وصل عامر إلى بيت صديقه استقبله أحمد بلهفة قائلاً :

ـ أهلاً عامر . . ما الذي حصل يا عزيزي ؟

قال عامر متحسراً :

ـ الذي حصل يا صديقي أنني دفعت ثمن جهلي :

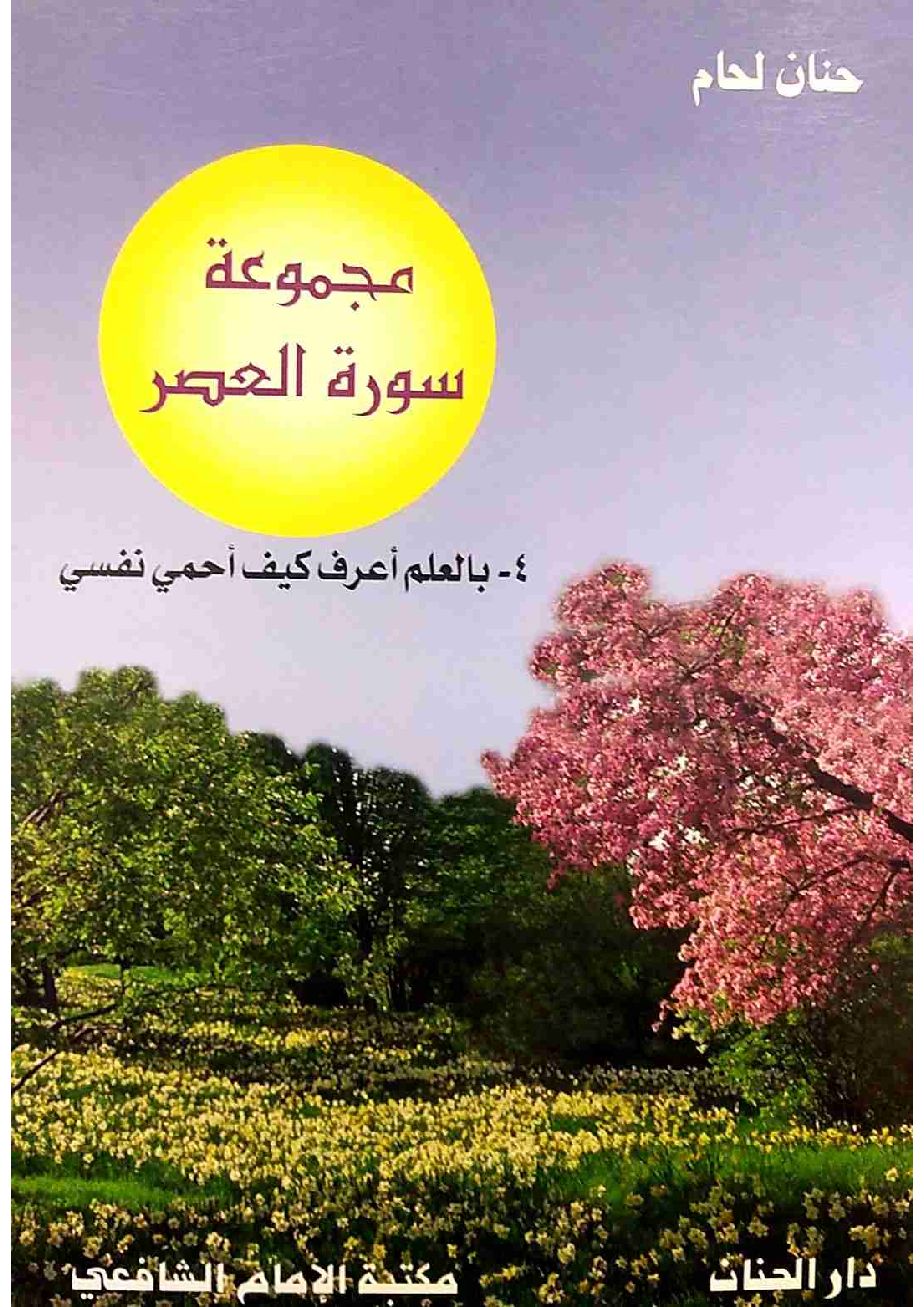
خمسون ريالاً . .

وضياع ساعة من وقتي . .

وفوات جزء من الحفلة علي . .

وقلقكم وقلق أمي علي . .

* * *


حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٤- بالعلم أعرف كيف أحمي نفسي
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٤)

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾

العلم

بالعلم أعرف كيف أحمي نفسي

حنان لحام

بالعلم أحمي نفسي من المرض

عادت عائشة من المدرسة إلى بيتها مصفرة الوجه مهمومة. . لاحظت أمها وجومها فسألتها باهتمام:

ـ ما بك يا عزيزتي. . ؟ هل حصلت على درجات منخفضة في أحد الدروس ؟

هزت عائشة رأسها بالنفي.

ـ هل أساءت لك إحدى زميلاتك أو معلمتك ؟

ـ لا . . أبداً.

وضعت الأم يدها على جبين عائشة تتلمس حرارتها وهي تقول:

ـ هل يؤلمك شيء في جسمك ؟ هل أنت مريضة ؟!

قالت عائشة بصوت مرتجف:

ـ أخشى أن يكون الوباء الجديد قد أصابني. . أرجوك يا أمي. . قيسي درجة حرارتي.

ـ سأفعل وإن كنت أحس أنها طبيعية.

وضعت الأم مقياس الحرارة في فم عائشة وهي تقول:

ـ اطمئني يا حبيبتي. . أنت بخير بإذن الله . .

وبعد قليل تناولت المقياس ودققت فيه. . وابتسمت قائلة:

ـ حرارتك طبيعية جداً ولله الحمد.

تفرست في وجه ابنتها الخائف وقالت :

ـ ما قصة الوباء الجديد يا عزيزتي أخبريني . . ؟

ـ البنات في المدرسة يتحدثن عنه . . ويقلن أنه بدأ ينتشر في البلد وأن أكثر الإصابات انتهت بالموت . . فهو وباء خطير . .

سكتت عائشة وهي تتأمل وجه أمها الوادع المطمئن وتساءلت باستغراب :

ـ هل كنت تعلمين ذلك يا أمي ؟!

ابتسمت الأم وقالت بهدوء :

ـ نعم . . أعلم ذلك .

قال عائشة محتجة :

ـ ولِمَ لم تخبريني . . ؟!

ـ كنت أنوي إخبارك اليوم أثناء ذهابنا إلى الطبيب . . فقد حددت معه موعداً ليعطينا اللقاح المضاد للوباء .

ـ ألا تشعرين بالخوف يا أمي ؟!

ضمتها أمها بحنو وقالت :

ـ هل نسيت أننا نؤمن بالله العظيم وأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ؟ ثم أننا الآن بما سخر الله لنا من العلم نستطيع أن نحمي أنفسنا من المرض .

ـ كيف نحمي أنفسنا ؟!

ـ هل نسيت أساليب الوقاية التي كنت تستمعين إليها في برامج (سلامتك) في الرائي . . ؟



فكرت عائشة قليلاً ثم قالت:

- النظافة في كل شيء.. الحصول على الغذاء اللازم.. عدم استعمال حاجات المصاب.. تجنب الأماكن المزدحمة وقاية من العدوى.. سكتت قليلاً.. ثم صاحت:

- لن أذهب بعد الآن إلى المدرسة حتى لا أصاب بالعدوى..

لم تتمالك الأم نفسها من الضحك.. بينما عائشة تنظر إليها بدهشة واستغراب..

- وهل في المدرسة من أصيب بهذا المرض..؟

عائشة.. إنك تجسمين الموضوع وتعطينه أكثر مما يستحق..

- ولكنه وباء فظيع يا أمي..!!

- لو فكر كل إنسان بمثل ما تفكرين.. لما خرج الناس من بيوتهم ولتعطلت مصالح الناس.. ولما وجدنا الخبز واللحم والدواء..

- ولكن كيف لا يخافون من الوباء؟!

- إنه الإيمان بالله يابنتي والاطمئنان إلى تقديره وحكمته..

ثم أن لنا في العلم حارساً أميناً..

- وكيف يحمينا العلم..؟!

- اسمعي يا عائشة.. كان الناس في الماضي في جهل.. لا يعرفون شيئاً عن أسرار الأوبئة.. يأتي المرض فيجتاح البلد ويقضي على الآلاف والناس خائفون مرعوبون مستسلمون بعجز.. ينظرون إلى المرض على أنه من سخط الآلهة وانتقامها.. أو من تلاعب الجن والأرواح الشريرة بالبشر..

فلما جاءت الأديان السماوية نشرت فكرة التوحيد بين الناس وبدأوا يدركون أن رب العالم كله إله واحد.. وأن الجن لا تستطيع أن تضر أو تنفع إلا بإذن الله..

وجاء الإسلام فقال للناس أن الله الذي خلق الأمراض خلق لها أدوية.. وأن على الناس أن يدرسوا حتى يكشفوا دواء كل داء.. فقد قال لهم رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء»[1].

وبدأ الناس يدرسون الأمراض ويجربون طرق العلاج..

وهكذا تقدم علم الطب.. إلى أن جاء العالم الفرنسي باستور. والناس ما زالوا في حيرة بشأن كثير من الأمراض التي كانت فتاكة: كالجدري والكوليرا والحصبة والطاعون والسل والملاريا و...

ما سببها..؟ وكيف تنتشر..؟ وكيف تعالج..؟

ولزم باستور مخبره وانكب على بحثه وتجاربه بكل إخلاص.. كان قلبه مفعماً بالألم من أجل الناس الذين يعانون ويموتون من حوله بالوباء.. وفي الوقت الذي جلس فيه أهله وأقرباؤه يبكون بيأس على من كان يصاب منهم فإن همة باستور أبت عليه أن يستسلم لليأس والعجز.. فاستمر في البحث.. فإذا به يكتشف الجراثيم وهي الكائنات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة.. وهي التي تهاجم الجسم الإنساني وتتسبب في المرض..

وبدأ يعلم الناس كيف يعقمون طعامهم وشرابهم لطرد الجراثيم وقتلها.. وجاء من بعده علماء وأطباء تابعوا الدراسة والبحث فحددوا لمعظم الأمراض جراثيمها.. وحددوا طرق العلاج.. بل أكثر من

---

(١) رواه مسلم.

ذلك . . لقد عرفوا كيف يحصنوا الإنسان ضد الأمراض . .

ـ تقصدين بالحرص على النظافة وطرق التعقيم ؟

ـ بل أكثر من ذلك . . بالتلقيح ضد الأمراض .

ـ وهل يكفي اللقاح في الحماية من الإصابة بالمرض ؟ !

ـ بالتأكيد يا عزيزتي . . إن نتائجه شبه مضمونه .

ـ وهل اللقاح دواء ؟

ـ لا يا عزيزتي . . سأذكرك بدرس العلوم عن الدم ووظائفه في جسم الإنسان . . هل تذكرين مم يتركب الدم ؟

ـ أجل . . من كريات حمر وكريات بيض ومصل .

ـ فما هي وظيفة الكريات البيض ؟

ـ إنها الجنود المخلصة التي تتولى الدفاع عن الجسم الإنساني .

ـ وكيف تدافع عنه ؟ . . هل تعرفين ؟

ترددت عائشة وهي تفكر :

ـ في الحقيقة لا أعرف تماماً كيف . . هلا أخبرتني ؟

ـ لقد كشف العلماء يا عزيزتي أن الله سبحانه وتعالى قد أعطى لهذه الكريات البيض قدرة عجيبة . . حتى كأنها مصانع أدوية يديرها أكثر الأطباء كفاءة . . إن لديها قدرة على إفراز مواد كيميائية تقاتل بها الجرثوم . .

فإذا كان الجسم قوياً سليماً . . وتسللت إليه بعض الجراثيم فإن خلايا الجسم سرعان ما تدق أجراس الإنذار وترسل إلى المسؤولين تحذيراً بأن غريباً خبيثاً قد تمكن من العبور . .

وهنا تسرع وحدات من الكريات البيض فتحيط بمنطقة التسلل وترصد الجرثوم وتحاصره وترميه بمفرزاتها حتى تقضي عليه وتبتلعه. . وعندها تحتفظ الكريات البيض في سجلاتها بملف عن الجرثوم الفلاني الذي صفته وشكله كذا وكذا. . وأنه قد تم القضاء عليه بمركب كيميائي من كذا وكذا. . وبذلك يصبح لدى الشخص مناعة ضد هذا المرض.

ـ حسناً. . لكن ما دور اللقاح هنا ؟

ـ لقد فكر العلماء بالأجسام الضعيفة التي قد يهاجمها الجرثوم على غفلة من جنودها. . كيف ننبهها إلى الخطر. . وكيف نساعدها ضد المرض ؟

فجربوا على الحيوانات في البداية. . فأدخلوا جرثومة المرض إلى الجسم ولكن بعد إضعافها والحد من قوتها. . فوجدوا أن الكريات البيض تنشط للقضاء على الجرثومة وتكتسب خبرة بالسلاح اللازم لهذا النوع من الجراثيم. . وهكذا يصبح الجسم محصناً ضد جرثوم المرض وقادراً على قتاله لأنه أعد السلاح اللازم للفوز عليه. .

وهكذا أوجدوا اللقاحات ضد معظم الأمراض. . وخففوا عن الناس ويلات الأوبئة التي كانت تجتاح البلدان وتحصد الآلاف. .

ابتسمت عائشة باهتمام وقالت:

ـ حقاً إن هذا لجدير بالإعجاب والاحترام. . !!

ـ هل رأيت كم يخدمنا العلم. . ؟

ـ فعلاً إنه لحارس أمين وبارع. .

سكتت قليلاً ثم نظرت إلى أمها وعلى شفتيها بسمة اعتذار:

ـ كم كنت مخطئة عندما فكرت بالانقطاع عن المدرسة والعلم.

ضحكت الأم وقالت:

ـ لا عليك يا حبيبتي.. لقد جعلتني أفهم بوضوح قول الإمام علي رضي الله عنه:

العلم خير من المال

العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

بالعلم أحمي نفسي من الأعداء

لاحظت أم ياسر أن ابنها متذمر من واجب الرياضيات بينما معاذ يريد أن يتملص من مراجعة درس العلوم.

فكرت قليلاً.. ثم قالت:

ـ لدي حكاية جديدة وجميلة.. كنت أود أن أحكيها لكما.. ولكن يبدو أنني لن أستطيع ذلك اليوم..

هتف الاثنان معاً:

ـ ولماذا؟!

ـ لأنكما ستتأخران فيما يبدو في إنهاء الواجب المدرسي..

قال ياسر:

ـ أبداً يا أمي.. لم يبق من واجبي إلا مسألة واحدة في الرياضيات.

وقال معاذ:

ـ وأنا سأحفظ درس العلوم بسرعة.

قال الأم مبتسمة:

- ولن أحكي الحكاية حتى ألقي نظرة على واجب الرياضيات الذي تعودت أن تكتبه بإتقان يا ياسر..

وحتى أسمع لك ما حفظت من درس العلوم الذي تحبه يا معاذ..

أسرع الاثنان في انجاز ما عليهما بحماس ظاهر..

ولم تمض نصف ساعة حتى كان الاثنان جاهزين هتف ياسر ضاحكاً:

- كلنا آذان صاغية يا أماه..

وسأل معاذ:

- عن أي شيء تتحدث الحكاية الجديدة ؟

- حسناً أيها العزيزان.. حكايتي اليوم عن عالم عظيم عاش في سالف الأزمان في بلاد اليونان..

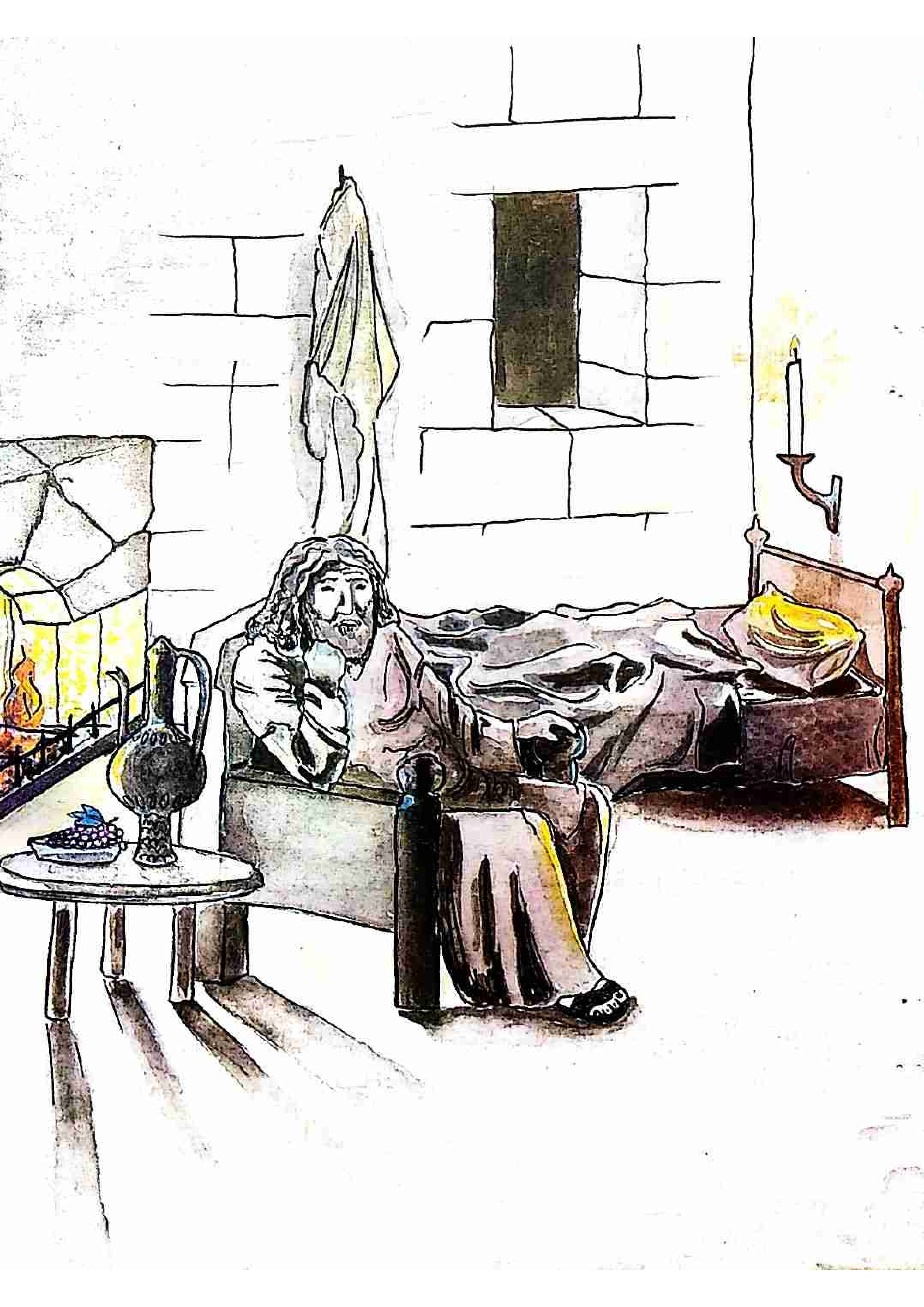
سأل ياسر بلهفة:

- من هو هذا العالم ؟

- اسمه أرخميدس (أركميديز)

ولد أرخميدس في مدينة سرقوسة في اليونان في عام ٢٨٧ قبل الميلاد. وكان أبوه عالم فلك اسمه فيدياس فنشأ الابن محباً للعلوم متطلعاً إلى المعرفة.. فلما كبر ورأى أبوه مقدار شغفه بالعلم والتعلم ساعده بالمال اللازم كي يسافر إلى الاسكندرية التي كانت في ذلك الحين مركزاً علمياً هاماً يقصدها طلاب العلم.. فدأب أرخميدس على الدراسة والتحصيل حتى برع في الرياضيات والفلك والفيزياء.. وأصبح عالم عصره يكتب الكتب والمؤلفات.. واشتهر أمره في بلده سرقوسة حتى أن





ملكها هيرون كان يحب مجالسته ويحترمه . .

وفي يوم من الأيام أراد الملك أن يصنع لنفسه تاجاً من الذهب . فكلف صائغاً ماهراً بصناعته وأعطاه كمية من الذهب ذات وزن محدد كي يصنع منها التاج .

وبعد مدة من الزمن عاد الصائغ بالتاج المطلوب . وقد أعجب الملك بجماله وحسن صياغته . ووزنه فكان وزنه يعادل وزن الذهب الذي أعطاه للصائغ . . وانصرف الصائغ وقد حصل على أجر سخي من الملك . . ولكن الملك خامره الشك في أمانة الصائغ . . وسأل نفسه :

ـ ما الذي يضمن لي أن الصائغ لم يستبدل بعض الذهب بوزنه من معدن رخيص آخر وجعله في داخل التاج وغطاه بالذهب ؟

وكيف أتأكد أن التاج كله من الذهب الخالص ؟!

كان الملك مشغول الفكر بأمر التاج عندما دخل عليه أرخميدس فأطلعه على التاج . . وطلب منه أن يكشف له : هل هو من الذهب الخالص أم أن الصائغ قد غشه بمعادن أخرى ليسرق بقية الذهب . .

أسرع ياسر يقول :

ـ المسألة سهلة . . يمكن أن يفك التاج ويصهره فيظهر إن كان مغشوشاً أم لا . .

ابتسمت الأم وقالت :

ـ ولكن الملك اشترط على أرخميدس أن لا يفسد التاج . . لأنه كان معجباً بجماله وحسن صياغته . .

فكيف يتمكن أرخميدس من حل هذا اللغز . . ؟!

قال ياسر بعد تفكير:

ـ هذه مسألة صعبة.. هل نجح أرخميدس في حلها؟!

ـ فكر أرخميدس في الأمر كثيراً.. وفي يوم من الأيام توجه إلى حمام المدينة يريد الاغتسال.. نزع ثيابه وأدخل رجليه في الحوض الممتلىء بالماء وهو شارد يفكر في أمر التاج..

فماذا حصل؟

سأل معاذ بلهفة:

ـ هل كان الماء حاراً فأحرق رجليه لأنه كان شارداً لم ينتبه؟!

ضحكت الأم من الإجابة البريئة وقالت:

ـ لا يا معاذ.. فكر معي.. ماذا يحصل حين تدخل قدمك في وعاء مليء بالماء؟!

قال ياسر:

ـ يفيض الماء خارج الوعاء..

ـ تماماً.. هذا ما حصل مع أرخميدس.. ودفعه هذا إلى التفكير: ترى كم من الماء يفيض خارج الحوض؟!

خرج من الحوض وملأه بالماء من جديد.. وعاد إلى إدخال رجليه فيه شيئاً فشيئاً.. فلاحظ أن حجم الماء الذي فاض يعادل حجم رجليه.. ولاحظ أنه يشعر بخفة في وزنه كلما دخل في الماء.. وقف أخميدس يفكر.. ولمعت في ذهنه فكرة.. لقد اكتشف شيئاً يمكنه من معرفة حقيقة التاج..

فخرج من الحوض مسرعاً وهو يصرخ:

ـ وجدتها . . لقد وجدتها . .

وانطلق في طريقه إلى البيت عارياً ـ فقد نسي نفسه وثيابه ـ يهتف:
ـ وجدتها . . وجدتها . .

استغرق ياسر ومعاذ في الضحك . . وسأل معاذ:

ـ أما قال عنه الناس: مجنون . . ؟!

قال ياسر:

ـ ولكن هل توصل إلى حل لغز التاج فعلاً ؟!

ـ أجل . . لقد حل اللغز . . جاء بالتاج فوضعه في إناء مليء بالماء . . وجمع الماء الذي فاض من الإناء. ثم جاء بما يعادل وزن التاج ذهباً فوضعه في الإناء المليء بالماء . . وأخذ الماء الذي فاض فوجده أقل من الماء السابق . . فعرف أن التاج مغشوش . .

هتف الإثنان:

وكيف ذلك ؟!

ـ لأننا لو جئنا بفضة تعادل في وزنها وزن الذهب لوجدنا أن حجم الفضة أكبر من حجم الذهب . . ولو غمسناها في إناء الماء لفاض من الماء على قدر حجمها . . أي أكثر من الماء الذي يفيض بعد غمس الذهب بالإناء . . وأعاد أرخميدس التجربة وجعل يستبدل من الذهب الذي يعادل وزنه وزن التاج مقادير من الفضة . . حتى وجد أن الماء الذي فاض يعادل الماء الذي فاض عند وضع التاج في الماء . .

وبذلك استطاع أن يحسب بدقة مقدار الذهب المسروق من التاج . .

هتف الاثنان:

ـ ما أشد ذكاءه . . !!

قال ياسر:

ـ لقد استطاع بالعلم فقط أن يحمي الملك من السرقة . . !!

قالت الأم:

ـ وكان أرخميدس سعيداً أكثر لأنه اكتشف قانون الأجسام الطافية واشتغل في حساب الثقل النوعي للأجسام . . مما أفاد الناس كثيراً في تطوير صناعة السفن وتسخير الفُلْكِ والبحار. وتعرضت مدينته لهجوم كاسح فاستطاع بعلمه أن يحميها . .

ـ كيف حصل هذا ؟!

ـ في تلك الأيام كانت رومة دولة فتية تسعى للسيطرة على البلاد المجاورة لها . . وفكر القائد الروماني (مارسلس) بالاستيلاء على سرقوسة. فجهز قوة عسكرية تهاجمها من البر وقوة بحرية تهاجم من البحر.

وكان عمر أرخميدس في ذلك الوقت سبعة وخمسين عاماً. فأشرف على الدفاع عن مدينته وجهزها للصمود في الجانبين البري والبحري. فلما اقترب مارسلس بجيشه من أسوار المدينة . . فوجىء بوابل من الأحجار الثقيلة تمطر جيشه . . فقد أقام أرخميدس خلف الأسوار منجنيقات طورها بعلمه حتى أصبحت تقوى على قذف الحجارة الثقيلة لمسافات بعيدة . . فاضطر القائد الروماني إلى التقهقر وهو يمني نفسه بأن يفاجئهم بالهجوم ليلاً . . ولكن أهل المدينة حين أبصروا سفن العدو قرب الشاطىء . . أخذ الرماة أماكنهم خلف الأسوار وأمطروا بحارة السفن

بوابل من السهام من بين الثقوب التي صنعها أعوان أرخميدس في الأسوار.

ـ عظيم جداً هذا العالم.. !

ـ ولم يقتصر الأمر على ذلك.. بل إنه وضع داخل الأسوار رافعات وبكرات ضخمة تلقي بالقرب من السفن كتلاً ضخمة من الحجاة والرصاص أغرقت الكثير منها.. وحاولت السفن الباقية أن تتراجع ولكن العالم فاجأها بسلاح آخر..

هتف معاذ:

ـ ما هو ؟

ـ أعد رافعة أخرى من نوع فريد مسلحة بخطاطيف كبيرة تمسك بالسفن وترفعها في الهواء وتقذفها على الصخور أو تلقيها بمقدمها في البحر.

هتف ياسر ومعاذ بحماس:

ـ يا له من بطل ذكي.. !!

ـ وابتعد الاسطول الروماني يائساً من الوصول إلى المدينة عن طريق البحر.. وعاود القائد الروماني الكرة في هجوم بري مباغت.. ولكن العالِمَ أمطر الجنود بحجارة منجنيقاته الضخمة.. ففر الرومان وهم يقولون:

إن الآلهة[1] نفسها هي التي كانت تقاتلنا وتقاومنا..

---

(١) كان الرومان وثنيين متخلفين في الدين يعبدون آلهة متعددة.

وأبى جنود الرومان أن يتقدموا بعد ذلك للقتال . .

وقد عرف الرومان بعد ذلك عظمة أرخميدس العالم . .

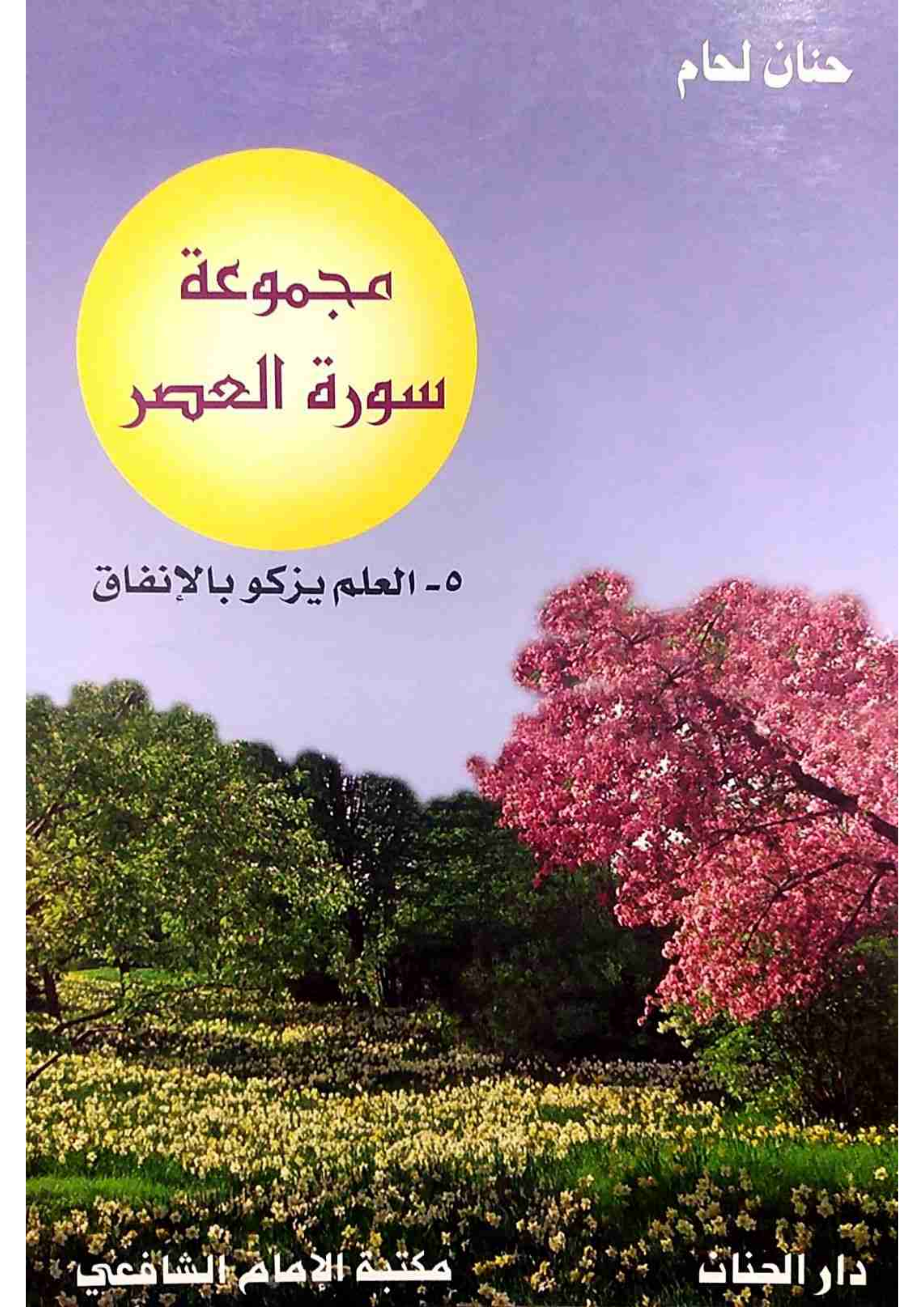
فلقد كانوا يملكون من القوة براً وبحراً ما يمكنهم من الاستيلاء على المدينة من فورهم . . إذ أبعد عنها رجل واحد طاعن في السن . . أتعرفون من هو ؟

ـ إنه العالم أرخميدس .

ـ هل عرفتما أيها العزيزان لماذا يقول الله لنا :

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

* * *



حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٥- العلم يزكو بالإنفاق
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٥)

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾

العلم

العلم يزكو بالإنفاق

حنان لحام

ـ ياسر. . إنها العطلة الصيفية. . ما أسعدني. . !!

هكذا كان يهتف سامر وهو يقفز فرحاً وبيده (الجلاء المدرسي). .

ابتسم ياسر بسعادة وهو يقول:

ـ الحمد لله لقد نجحنا في الامتحان. . مبروك يا سامر فقد كان نجاحك باهراً وحصلت على الدرجات الأولى في الفصل.

ـ أشكرك يا ياسر وأتمنى أن تكون من الأوائل في السنوات القادمة.

كان الاثنان واقفين في فناء المدرسة وسط ضجيج الزملاء. .

ما بين زقزقة السعداء بنجاحهم. . واحتجاجات المتخلفين. .

ولمح سامر بعض الكتب الدراسية موضوعة على سور الفناء. . فصاح بها:

ـ إليك عني أيتها الكتب. . فلطالما عانيت من صحبتك. . والآن سأتحرر منك وأنطلق إلى إجازتي دون أن يلاحقني أحد بالسؤال المضني: هل ذاكرتَ دروسك ؟

كان ياسر يستمع إليه بدهشة. . وسأله مستغرباً:

ـ أنت تقول هذا يا سامر ؟! كنت أظنك تحب الدراسة والعلم ولهذا تفوقت علينا!!

ضحك سامر وقال:

ـ الحقيقة يا صديقي هي أنني لا أحب العلم. . ولكنني لا أريد إغضاب والديَّ وهما يلحان عليَّ في الدراسة ويحلمان بأن يكون ولدهما متفوقاً في تحصيله العلمي. ولهذا ألزمت نفسي بالجد والسهر إكراماً

لهما . . أما وقد جاءت العطلة الصيفية فقد أصبح من حقي أن ألعب وأمرح وأنطلق على هواي دون أن ينغصني سؤالهما : هل ذاكرت ؟

سكت ياسر ولم يرد تعكير فرحة صديقه . . لكن ذهنه سرح إلى أمه المريضة في البيت . . إنه يحب العلم والدراسة كثيراً . . لكن ظروفه البيتية في هذا العام لم تسمح له بالدراسة الجدية .

فقد كان يعود من مدرسته مسرعاً ليقدم بعض العناية لأمه ويرعى شؤون إخوته الصغار . . فأبوه لا يعود من عمله حتى المساء . . وجدَّته قد توفيت في العام الماضي . .

ولمعت دمعة في عين ياسر وهو يتذكر وجه أمه الحزين وكلماتها الطافحة بالألم :

ـ كم يؤلمني أن أكون سبباً في تعطيلك عن دراستك . .

وكان يرد عليها مُطَمْئِناً :

ـ لا تخافي علي يا أمي فإنني أنتبه للمعلم أثناء الحصة . وهذا يوفر علي كثيراً من الدراسة . فتسأله :

ـ وهل يكفيك هذا للنجاح ؟!

ـ لا تخافي يا أمي سأنجح بإذن الله . . والمهم أن تعود إليك عافيتك وتكوني راضية عني .

عندها كانت الدموع تتساقط من عينيها وهي ترفع يديها ضارعة :

ـ الله يرضى عليك ويوفقك يا ولدي .

انتبه سامر إلى وجوم صديقه ياسر ، فقال له بود :

ـ ما بك يا ياسر ؟هل أزعجتك بشيء ؟

ـ أبداً يا سامر ولكنني تذكرت أمي . . لا بد أنها ستفرح كثيراً بنجاحي . .

ـ حسن . . هيا بنا ننصرف ونبشر أهلنا فقد انصرف معظم الطلاب .

استدارا نحو بوابة المدرسة . ولكن صوتاً استوقفهما :

ـ سامر . . توقف قليلاً من فضلك .

التفت الاثنان فإذا بمعلم الرياضيات يتجه نحوهما مشيراً بيده . .

ـ انتظرا . . أريد التحدث إليكما .

أسرعا إليه فبادرهما بالتهنئة :

ـ مبروك نجاحكما . . وخاصة أنت يا سامر فقد كنت من الأوائل . .

لا شك أنك قد بذلك جهداً تشكر عليه حتى منحك الله هذا التفوق .

ابتسم سامر وهو يقول :

ـ أشكرك كثيراً يا أستاذي الكريم على هذه التهنئة وعلى ما قدمت لنا خلال العام من تعليم .

ـ أما أنا فقد أديت واجبي ولا شكر على واجب . ولكن عليك أن تشكر الله .

ـ الحمد لله دائماً على توفيقه .

ـ لا يكفي يا بني أن نشكر الله بكلامنا . . ولا بد أن نقدم عملاً نعبر فيه عن شكرنا . . ألم تسمع قول الله تعالى :

﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ [سبأ : ١٣] .

نظر سامر مستفهماً إلى معلمه . . ؟ ابتسم المعلم وقال :

ـ ولهذا جئت أعرض عليك أمراً . . أتعلم أن زميليك عامر وسعد قد رسبا في الامتحان ؟

هتف ياسر :

ـ حقاً ؟! يا لهما من بائسين . !

علَّق سامر باعتداد :

ـ ولكن هذه النتيجة كانت متوقعة لهما . . فقد تغيبا كثيراً أثناء العام الدراسي . . وكانت درجاتهما متدنية في الاختبارات .

نظر ياسر إلى سامر بعتاب وقال :

ـ لا تقل هذا . . فربما كانت لهما ظروف قاسية منعتهما من الدراسة .

ظهر الأسف على وجه المعلم وهو يقول :

ـ أجل يا بني . . لقد كانت لهما ظروف قاسية . . لقد تحريت أمرهما وساعدني على ذلك المشرف الاجتماعي في المدرسة . إنهما يعملان بعد الدوام المدرسي لكسب القوت لأسرتيهما . أما عامر فهو يتيم وهو مضطر لكسب المال لمساعدة إخوته على الإنفاق على البيت . وأما سعد فقد أصيب والده بمرض عضال . . وهو يعمل مع إخوته لتوفير المال اللازم للمعالجة والأدوية .

وجم ياسر وسامر لبرهة . ثم قال سامر :

ـ حقاً إنه لأمر مؤسف .

قال المعلم :

ـ إنك تستطيع مساعدتهما يا سامر .

ـ وكيف ؟!

ـ إنهما بحاجة إلى دورات دراسية في هذه العطلة. وطبعاً لا يمكنهما الاشتراك بالدورات الموجودة في بلدنا لأنها تكلف مالاً. ولكن لو قام أحد زملائهما المتفوقين بمراجعة المنهج الدراسي معهما أثناء الصيف لاستطاعا النجاح في العام المقبل. ما رأيك يا سامر ؟

ارتبك سامر وهو يقول:

ـ أنا.. ولكن لا أستطيع يا أستاذي.

ـ ولماذا لا تستطيع ؟

ـ في الواقع.. أنا.. أنا مرهق من كثرة ما بذلت من جهد أثناء العام الدراسي ومحتاج إلى الراحة والاستجمام.

ـ لن يكلفك هذا سوى ساعة في كل يوم لمراجعة المواد الرئيسية الرياضيات والعلوم واللغة العربية واللغة الأجنبية.. أما باقي المواد فيمكن أن يعتمدا فيها على جهدهما.

كان سامر قد تمالك نفسه فقال متملصاً:

ـ آسف يا سيدي.. فإنني سأسافر مع والديَّ للاستجمام في أحد المصايف.

كان ياسر يتأمل الموقف بأسى. فلعل أستاذه لم يطلب منه ذلك لأنه لم يكن من المتفوقين في هذا العام. ولكنه يستطيع أن يقوم بهذا العمل بمراجعة الكتب الدراسية، خاصة وأن أمه قد تماثلت للشفاء.. ولم يتردد ياسر فأسرع يقول لمعلمه:

ـ ألا أستطيع أن أقوم أنا بهذا العمل ؟ صحيح أنني لم أكن من المتفوقين ولكن حالت بعض الظروف بيني وبين الدراسة، وستكون هذه

فرصتي لترسيخ معلوماتي في هذا الصيف.

نظر المعلم إلى ياسر بإعجاب وسرور وقال:

ـ طبعاً يا بني يمكنك القيام بذلك، بارك الله فيك وأعانك على الخير.

تعال معي ندرس الأمر مع صديقيك عامر وسعد.

أمسك المعلم بذراع ياسر وانطلق معه. لكنه التفت بعد خطوات نحو سامر ورماه بنظرات ذات مغزى وهو يقول:

ـ أتمنى لك إجازة سعيدة يا سامر..

وقف سامر مذهولاً لحظات.. ثم رفع كتفيه بلا مبالاة واستدار نحو البوابة وهو يقول في نفسه:

ـ يا له من غبي.. لقد ضاعت عليه فرصة الإجازة..

مضت أيام العطلة بسرعة عند الجميع.. فالمشغولون باللهو واللعب تهرب منهم الأيام دون أن يعرفوا لها معنى.. وأما الجادون المهتمون بالعلم والعمل.. فإنهم يحسون أن الوقت أقل مما يريدون..

فالأيام المليئة بالعمل تسرع الخطا بما تحمل من إنجازات طيبة لتوزع ثمارها على الجميع..

وهكذا انطوت أيام الصيف مع ياسر.. فقد نظم برنامجاً يومياً لنفسه يجمع بين التدارس مع صديقيه ومساعدة أمه والاستجمام والراحة مع إخوته.. وكثيراً ما كان يضطر إلى الرجوع إلى بعض الكتب والمراجع أو بعض الأساتذة لتجلية بعض المسائل وفهمها أكثر.. لأنه لا يستطيع نقلها إلى صديقيه ما لم يستوعبها تماماً.. وهكذا ذهب معظم وقت الاستجمام بالتحصيل وملاحقة العلم حيث كان.. لكنه كان سعيداً جداً بذلك.. وعندما خلا إلى نفسه في نهاية العطلة ليستعرض ما كسبه فيها وجد أرباحه

كثيرة. . فلقد تمكن من تعميق معلوماته وتوسيعها بشكل طيب. . إذ أن كثيراً من المسائل التي مر عليها سريعاً أثناء العام الدراسي أصبحت الآن مشرقة راسخة في أعماقه.

ثم أنه تمكن من مساعدة صديقيه وإنعاش قلبيهما. . وكم كان الفرح يغمر قلبه حين يرى بسمة الأمل في وجهي صديقيه. . لقد عبرا له عن شعورهما الجديد. . فالدنيا ما زالت بخير. . ومهما نزل بالإنسان من مصائب وواجهته عقبات فإنه يمكن أن يجد مخرجاً. . ويمكن أن يلتقي بمن يعاونه على اجتياز الصعوبات. . لقد كانت سعادته كبيرة بسعادتهما. . وكان قلبه ينبض بالفرح لأنه يقوم بعمل يرضي الله عنه ويؤهله لدخول الجنة. وحتى جسمه قد ازداد قوة ونشاطاً. . إلى درجة أن أمه قد عبرت عن دهشتها مما ظهر عليه من عافية ونشاط وسعادة. . فقال لها:

ـ أتعلمين يا أماه. . لقد اكتشفت أن الله جعل سعادتنا تتحقق عندما نقوم بإسعاد الآخرين. على عكس ما كنا نظن بأن السعادة في توفير المتعة والخير للذات فقط. !!

ـ رعاك الله يا ولدي. . والآن انتهت الصيف وغداً تفتح المدرسة أبوابها. . فكيف تذهب إليها وأنت لم تسترح ؟!

ضحك ياسر وقال:

ـ ألم تقولي قبل قليل بأنني في عافية ونشاط ؟! إنما الراحة للمتعبين يا أمي وأنا لا أشعر بالتعب في تحصيل العلم.

وأشرق يوم جديد. . وعام دراسي جديد. . والتقى الأصدقاء في فناء المدرسة من جديد. وارتفعت الأصوات والتحيات والضحكات. . ورأى

ياسر صديقه سامر وفي وجهه ذبول وفتور فاقترب منه وشد على يده محيياً:

ـ السلام عليكم. . كيف حالك يا سامر ؟ وكيف كانت إجازتك ؟

ـ آه. . لقد كانت جميلة. . ولكن سرعان ما طارت مني. . وها نحن نعود من جديد للبؤس والمعاناة مع الدراسة.

ضحك ياسر قائلاً:

ـ لا تقل هذا يا صديقي فالعلم لذيذ. .

نظر سامر إليه بامتعاض وقال:

ـ ما أظنك قد اشتقت للعلم والدراسة. . ألم تقض الإجازة يا مسكين وأنت تدرس مع عامر وسعد ؟!

أجاب ياسر والابتسامة لا تفارق وجهه:

ـ صدقني يا سامر لقد كانت أروع إجازة قضيتها حتى الآن. .

رفع سامر حاجبيه مذهولاً وقال:

ـ يا لك من مكابر. . وقبل أن يتم كلامه ارتفع رنين الجرس. .

وانتظمت صفوف الطلاب. . وبعد دقائق كان الجميع في صفوفهم وقد حان وقت الجد والاجتهاد.

لم تمض أيام من العام الدراسي حتى لمع نجم ياسر فأصبح الأول في صفه. . بل على جميع الشُعَب في مرحلته. . وأصبح ياسر هو المرجع لزملائه عند كل مسأل صعبة. فعنده يجدون التعاون المخلص والصدر الرحب. والصبر على إيجاد الحل. فلم ينقضِ الفصل الدراسي الأول حتى نال ياسر الدرجة الأولى على مرحلته وقُدمت له جائزة أسعدته كثيراً

وهي كتاب (الموسوعة العلمية). وانتخب رائداً لصفه وصفق له زملاؤه طويلاً فقد كان محبوباً لتواضعه ورغبته في مساعدة الجميع.

ووقف سامر مدهوشاً يشد على يد صديقه مهنئاً ويقول:

ـ مبروك يا ياسر.. لا أكتمك أنني مندهش جداً.. فلم أستطيع أن أنافسك أو ألحق بك رغم أنني بذلت جهدي في الدراسة..! قل لي بالله عليك.. ما سر هذا التفوق الرائع ؟!

أجاب ياسر وهو يغالب دموع الفرح في عينيه:

ـ الحمد لله يا أخي فله كل الفضل في ذلك..

وسكت قليلاً ثم قال:

ـ أتسألني عن السر ؟

والتفت إلى صديقيه عامر وسعد وأحاطهما بذراعيه وهو يقول:

ـ إن الفضل بعد الله لصديقيّ هذين.. فدراستي معهما هي التي أعطتني مزيداً من العلم والتمكن. وقديماً قال علي رضي الله عنه:

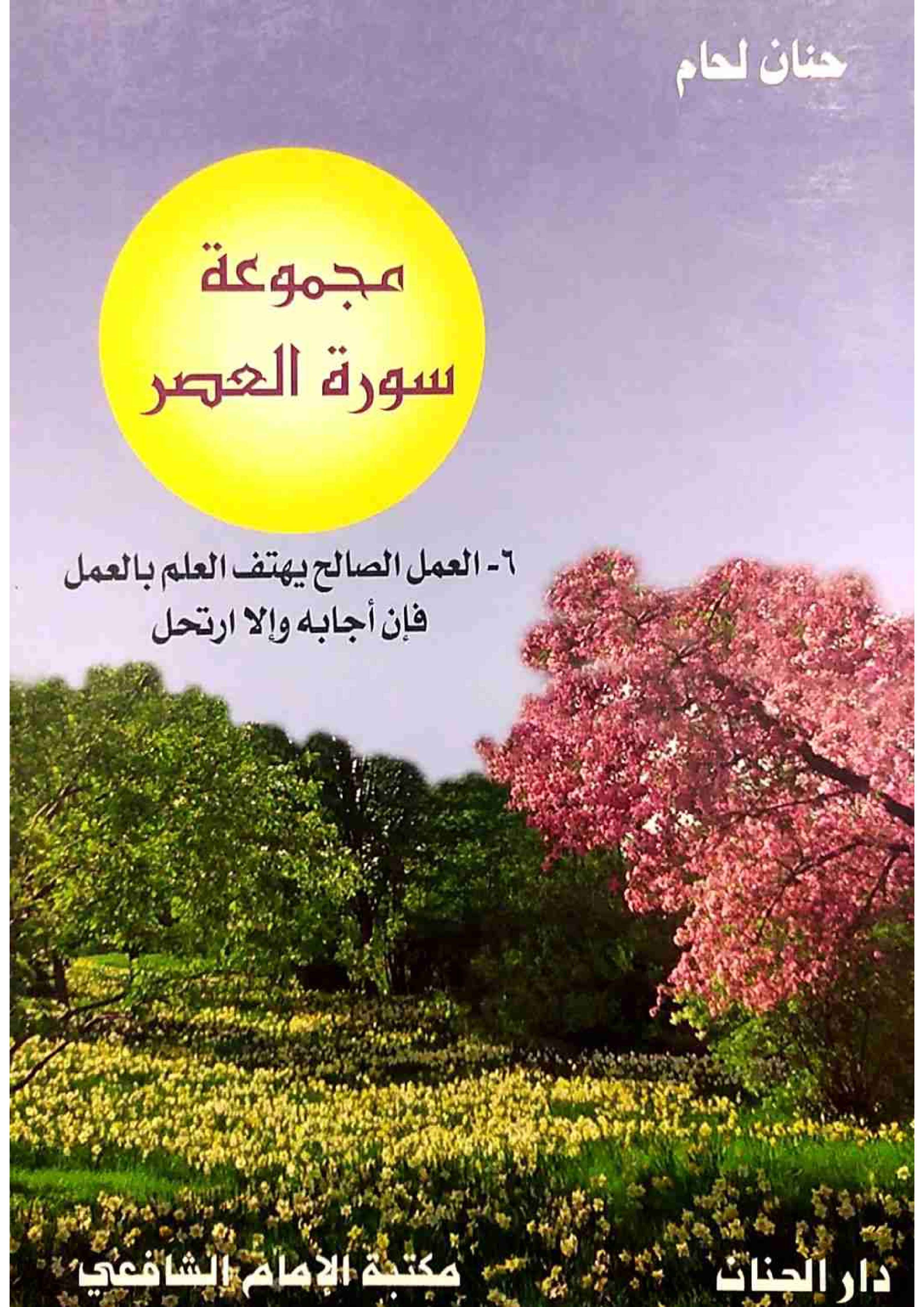
(العلم يحرسك وأنت تحرس المال.

والعلم حاكم والمال محكوم عليه.

والمال تنقصه النفقه والعلم يزكو بالإنفاق).

حقاً يا صديقي إن العلم ينمو ويزكو كلما أنفقت منه.

* * *


حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٦- العمل الصالح يهتف العلم بالعمل
فإن أجابه وإلا ارتحل
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٦)

﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾

العمل الصالح

يهتف العلم بالعمل

فإن أجابه وإلا ارتحل

حنان لحام

ـ هدى . . تعالي يا حبيبتي وأسمعيني ما حفظت من دروس .

أسرعت هدى نحو أمها وهي تحمل كتابها بيدها وتقول :

ـ ها أناذا يا أماه .

استرخت الأم على الأريكة وهي تتناول الكتاب من ابنتها . نظرت إلى عنوانه وقالت بارتياح :

ـ يا سلام . . إنه كتاب الحديث . . ما أحلى أن نعيش مع رسول الله ﷺ ووصاياه النيرة . . حسن . . هات ما عندك يا حبيبتي .

ـ لقد حفظت الحديث الذي أعطتنا إياه المعلمة اليوم إنه طويل .

ـ وما موضوعه ؟

ـ إنه يعدد أنواعاً من الصدقات . أتعلمين يا أمي لقد كنت أظن أن الصدقة تكون من المال فقط . وكنت أتساءل في نفسي وأقول :

مساكين الفقراء لأنهم لا يستطيعون أن يقدموا صدقات . . ! !

ضحكت الأم وقالت :

ـ والآن اكتشفت أن بإمكانك أن توفري مصروفك وتقدمي صدقات من نوع آخر . . !

ـ سامحك الله يا أمي .

أسرعت الأم تضم ابنتها إلى صدرها وتقول :

ـ لقد كنت أمزح معك يا عزيزتي . . فأنا أعرف كرمك وطيبتك . .

والآن أسمعيني الحديث . .

اعتدلت هدى في جلستها وقد ظهر عليها الجد والاهتمام :

ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس . تعدل بين الاثنين صدقة . وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة والكلمة الطيبة صدقة . . وبكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة . وتميط الأذى عن الطريق صدقة» .

ـ أحسنت يا هدى . . وهل فهمت الحديث يا ترى ؟

ـ أجل فقد شرحته لنا المعلمة . . وراجعت شرحه في الكتاب واسأليني عنه إن شئت .

ـ حسن . . ما معنى سلامى ؟

ـ العظمة في جسم الإنسان .

ـ فما معنى العبارة الأولى في الحديث : «كل سلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس» ؟

ـ أي أن على كل عظم من عظام الإنسان صدقة في كل يوم .

ـ وكم عدد عظام الإنسان ؟

ـ ثلاثمائة وستون عظماً .

ـ أحسنت . ولماذا عليها صدقات كل يوم ؟

ـ ليؤدي الشكر لله الذي خلقها له ومتعه بعافيتها كل يوم .

ـ الله . . الله يا هدى ما أعظم ما فهمت ! !

وكم عدد الصدقات التي ذكرها رسول الله ﷺ هنا ؟

ـ آه . . انتظري لحظة . .

ابتسمت الأم وهي تراقب ابنتها تسترجع الحديث وتعد على أصابعها ثم تهتف:

ـ إنها خمس.

ـ عظيم.. لنرجع إلى الأولى: كيف يعدل المسلم بين اثنين؟

ـ إذا تخاصم اثنان يصلح بينهما.

تفرست الأم في وجه ابنتها ثم قالت:

ـ وهل هذا سهل؟ هل جربت ذلك؟

فكرت هدى قليلاً ثم قالت:

ـ صديقاتي يتخاصمن أحياناً. وقد جربت مرة أن أصلح بين اثنتين ولكنهما رفضتا.

ـ أرأيت..؟ إن هذا ليس سهلاً. إنه يحتاج إلى تفكير في الأسلوب الناجح للإصلاح. ألم تلاحظي شيئاً في قول الرسول ﷺ؟

فكرت هدى وقالت:

ـ أجل. إن الحديث يقول (تعدل) بين الاثنين والمعلمة شرحتها على أنها تصلح بين الاثنين.!

ـ عظيم.. إن معنى ذلك يا هدى أنك لن تتمكني من الإصلاح حتى تعدلي.

ـ كيف؟!

ـ سأذكر لك حادثة. دخل رجل على أحد القضاة يشكو رجلاً آخر وقد أصيبت عينه.. كان غاضباً ومتألماً وهو يعرض شكواه.. فالتفت القاضي إلى أحد مساعديه وقال:

ـ ما رأيك في القضية ؟

ـ أرى يا سيدي أن تحكم له فمن الواضح أنه مظلوم وقد اعتدى عليه خصمه حتى أصيبت عينه.

ما رأيك يا هدى ؟

ـ صحيح يجب أن يحكم له.

ضحكت الأم وقالت:

ـ ولكن القاضي هز رأسه مستنكراً وقال: ـ كيف تحكم في الأمر وأنت لم ترَ خصمه ولم تسمع له.. ؟ فإن كان هذا قد أصيبت عينه فلعل الآخر قد أصيبت عيناه معاً.!!

سكتت هدى قليلاً وهي تفكر.. ثم قالت:

ـ صحيح.. إن الإنسان لا يعرف الحقيقة ولا يستطيع أن يعدل حتى يستمع للطرفين.

ـ نعم يا حبيبتي.. إن من يريد الإصلاح لا بد له أن يسمع شكوى الطرفين فكثيراً ما يكون كلاهما صاحب حق في جانب من الجوانب. وكثيراً ما يزيد الناس الأمر سوءاً حين ينقلون الكلام بين الطرفين المتخاصمين.

ـ حقاً إنه لأمر صعب يا أمي.

ـ ليس صعباً على الأذكياء مثلك.. خاصة إذا كان يريد الأجر من الله ويعتمد عليه في التوفيق.. ويراقب الأمور ونتائجها بدقة.. تذكري يا حبيبتي أن الله العليم لا يمكن أن يكلفنا بأمر لا نستطيع تحقيقه.

ـ بالتأكيد يا أمي فأنا مؤمنة بالله العليم الحكيم.

ـ حسن . . لننظر في الصدقة الثانية «تعين الرجل في دابته» . .

ـ معناها أن تساعده علي حمل حاجاته ووضعها على الدابة .

ـ ولكن الناس الآن ما عادوا يحملون حاجاتهم على الدواب ؟

فكرت هدى قليلاً وقالت :

ـ ألا يقصد الرسول ﷺ مساعدة الناس على الحمل وعلى قضاء حوائجهم مهما كانت وكيفما كانت ؟

ـ أحسنت يا حلوتي . . والصدقة الثالثة ؟

ـ الكلمة الطيبة .

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل إلقاء السلام . . وكلمات الشكر والتهنئة . . و . .

وأخذت هدى تفكر . . فقالت أمها باسمة :

ـ فإذا كان الإنسان مخطئاً كيف تقدمين له كلمة طيبة ؟!

ـ النصحية هي كلمة طيبة .

ـ ولكن النصيحة ثقيلة على القلوب . . ما رأيك ؟!

ضحكت هدى وقالت :

ـ أعرف يا أمي أن النصيحة يجب أن تكون بلطف ورفق .

ابتسمت الأم وقالت :

ـ أما الصدقة الرابعة فهي مفهومة «كل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة» . . لكن الخامسة ؟

ـ «تميط الأذى عن الطريق صدقة» معناها أن تخرج من طريق الناس كل ما يمكن أن يؤذيهم.

ـ مثل ماذا ؟

ـ مثل الأوساخ وأغصان الشجر والحجارة وقشور الفواكه التي قد تزحلق من يدوس عليها . .

ـ والقمامة التي تنبعث منها الروائح المؤذية وتحوم حولها الحشرات وتنقل الأمراض.

ـ أتعلمين يا أمي أن عامل النظافة يربح صدقات كثيرة وينال الأجر الكبير عند الله. فهو دائماً يميط الأذى عن الناس ؟

ـ أحسنت يا عزيزتي . . إنه إنسان يستحق منا كل احترام وتعاون . . فما رأيك بالذين يرمون الأذى في الطريق ؟

سكتت هدى قليلاً أمام نظرات أمها الفاحصة ثم قالت :

ـ أنا لا أفعل ذلك يا أمي . . ولكن أرمي أحياناً أوراق السكاكر وهي لا تؤذي الناس.

ـ وكيف لا تؤذي . . ؟! هل يبقى منظر الشارع جميلاً والأوراق مبعثرة فيه ؟ألا يؤذي العين منظره ؟!

ـ بلى . . إنه يزعج العين.

ـ إن الله جميل ويحب الجمال . . وكلنا نحب الجمال والنظافة والنظام . . ويؤذينا منظر القبح والفوضى.

ـ توبة يا أمي . . لن أفعل ذلك مرة ثانية.

ابتسمت الأم وقالت :

ـ حسن جداً . . ولكن رسول الله ﷺ يطلب منك أن لا تلقي الأذى في الطريق فقط ؟

ـ بل أن أزيح الأذى من الطريق أيضاً .

ـ والآن لدي سؤال يحتاج منك إلى انتباه . هل هذه الصدقات كلها من نوع واحد ؟أم أن منها ما يعود على الإنسان وحده ومنها ما يتعلق بمصالح الناس ويفيدهم ؟

فكرت هدى وقالت :

ـ كلها تتعلق بالمعاملة مع الناس إلا واحدة وهي «كل خطوة تمشيها إلى الصلاة» .

ـ أحسنت يا هدى . إذن أشار الرسول ﷺ إلى أجر عبادة الصلاة بعبارة واحدة بينما أعطى للتعامل مع الناس أربعاً . ماذا تفهمين من ذلك ؟

ـ أفهم أن (الدين المعاملة) فالتعامل الجيد مع الناس هو أعظم عبادة .

ـ وهل هذا الأمر لا يقدر عليه إلا الأغنياء ؟

ـ بل يقدر عليه الجميع .

ـ فالعطاء لا يكون بالمال فقط وصدق رسول الله ﷺ في قوله : «إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق» .

ـ إنك رائعة يا أمي فقد نبهتني لأمور عظيمة لم أكن أنتبه إليها قبل الآن .

ضمت الأم ابنتها إلى صدرها وقبلتها وهي تقول :

ـ بارك الله فيك يا هدى ورعاك . . والآن وقد حفظت هذا الحديث الطويل . .

هل تنسينه بعد أيام ؟

ـ سأكرره في كل يوم حتى لا أنساه .

ـ سنرى ذلك .

وفي اليوم التالي كانت هدى تكرر الحديث أثناء ذهابها إلى المدرسة كي تثبت لأمها أنها لن تنساه .

عند موقف الحافلة كان الناس ينتظرون . كل منهم يريد اللحاق بعمله . . ووقفت بينهم امرأة تحمل طفلها وإلى جانبها حقيبة ملأى بالخضار الطازجة . . كانت هدى تردد الحديث فوصلت إلى «تعين الرجل في دابته» نظرت إلى المرأة وقالت في نفسها : كيف ستركب هذه المرأة الحافلة وهي تحمل طفلها وأغراضها ؟! أما أنا فحقيبتي على ظهري ويمكن أن أحمل حقيبة الخضار بإحدى يدي أليست هذه إحدى الصدقات المطلوبة ؟ اقتربت هدى من المرأة وحيتها بأدب وعرضت عليها أن تساعدها على حمل الحقيبة أثناء ركوب الحافلة . أشرق وجه المرأة بالسرور وهي تشكر هدى التي لم تترك الحقيبة حتى تمكنت المرأة من الجلوس على أحد مقاعد الحافلة . وشعرت هدى بنشوة حلوة تملأ قلبها وهي تسمع شكر المرأة وتلمح بريق السعادة في وجهها . وغادرت الحافلة والرضى ينعش نفسها .

ـ السلام عليكم يا هدى .

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته يا هالة . كيف حالك ؟

مدت هالة يدها بسُكرات إلى هدى وقالت :

ـ تفضلي . .

تناولت هدى واحدة شاكرة. . ووضعتها في فمها وكادت أن تلقي ورقتها في الطريق. ولكنها تذكرت الحديث فوضعتها في جيبها. كانت هالة قد تناولت سكرة وألقت بورقتها في الطريق. . فلما رأت تصرف هدى ضحكت وقالت:

ـ هل أصبحت من هواة جمع أوراق السكاكر. . ؟! حقاً لقد اخترعت هواية جديدة.

أسرعت هدى فالتقطت الورقة التي ألقتها هالة على الأرض ووضعتها في جيبها أيضاً. كانت مغتاظة من سخرية هالة وأرادت أن ترد عليها. . لكنها أمسكت نفسها قليلاً وفكرت: الحمد لله لقد أعانني حتى الآن على كسب صدقتين. . وصديقتي الآن محتاجة إلى نصيحة فهل أفلح في تقديم كلمة طيبة لها تكون لي صدقة ثالثة. ؟

وما لبثت أن قالت لصديقتها التي كانت تنظر إليها بدهشة:

ـ عزيزتي هالة. انظري إلى الشارع كم هو جميل في نظافته. لقد تعب عامل النظافة منذ الصباح في إماطة الأذى عنه وتجميله. ولا أظنك تقبلين أن يُقدم أحد على تعكير هذا الجمال. .

سكتت هالة متأملة. . وتابعت هدى:

ـ هل نسيت أننا تعلمنا بالأمس حديث رسول الله ﷺ «وتميط الأذى من الطريق صدقة» ؟

ظهر الخجل على وجه هالة وهي تقول:

ـ آسفة يا هدى. . لقد كدت أنسى ذلك فجزاك الله خيراً أن ذكرتني.

تناولت هدى يد صديقتها ملاطفة وقالت بود:

ـ لا عليك يا عزيزتي. كلنا نحتاج للتذكير أحياناً.

علا ضجيج البنات في الفسحة وهنَّ يتراكضن ويمرحن.

ووقفت هدى عند مطعم المدرسة في الفناء لتشتري بعض المأكولات فإذا بها تسمع مشادة بين فتاتين من صفها.

- إليك عني يا غادة فلن أكلمك بعد الآن.

- ومن قال لك بأنني حريصة على مصادقة كسولة مثلك.. !!

- أنا كسولة أم أنك أنت أنانية وبخيلة ؟!

- لا تحاولي تبرير كسلك يا سعاد.

واستمر الجدال على هذا المنوال.. وهدى واقفة تنظر إليهما بحيرة.. إلى أن افترقتا وكل واحدة لا تقل غضباً عن الأخرى. شعرت هدى أنها أمام أمر صعب وقالت في نفسها: يا إلهي إنها أصعب صدقة «تعدل بين الاثنين».

ترى هل أستطيع أن أؤديها.. ؟!

وفكرت هدى من أين تبدأ.. ؟ لا بد من معرفة السبب أولاً وعليها أن تسمع شكوى كل واحدة منهما. نظرت في ساعتها.. بقي من الفسحة بضع دقائق. كانت غادة ما زالت قريبة منها فأسرعت إليها وبادرتها:

- ما الأمر يا غادة ؟ ولماذا أنت غاضبة من سعاد ؟

- أوه.. لا تذكريني بها.

- ولم ذلك.. إنها طيبة.. وأنتما صديقتان حميمتان ؟!

- لقد انكشفت على حقيقتها. تصوري أنها كانت تريد أن تنقل مني واجب الرياضيات ؟!

- حقاً ؟!

ـ صدقيني. . ولما قلت لها أن عليها أن تعتمد على نفسها ثارت واتهمتني بالبخل والأنانية. . ! !

ـ يا إلهي. . ولكن هذا غش. وكما قال رسول الله ﷺ «من غشنا فليس منا» ! !

ـ لقد قلت لها ذلك. . ولكنها ثارت أكثر وأخذت تنكر أنها تريد الغش ! !

ـ إنها مخطئة حقاً. . هداها الله.

شعرت هدى بأن غادة على حق وأن سعاد تتجاوز حدود الصداقة والاستقامة. وأخذت تتساءل في نفسها: أليس غريباً أن تقع سعاد المعروفة بطيبتها وأخلاقها الجيدة بمحاولة الغش ؟! ثم تخاصم صديقتها لأنها رفضت مساعدتها على ذلك ؟! ترى هل تستطيع أن تنصحها وتردها إلى صوابها. . . ؟

بدأت هدى تبحث عن سعاد وهي لا تدري كيف تبدأ معها الكلام ولكن جرس الحصة أدركها. توجهت إلى صفها وقد قررت أن تتريث حتى وقت الانصراف وعندها تستطيع أن تتحدث إلى سعاد. ولا بد من أن تسمع وجهة نظرها أولاً. . فمن يدري لعل في الأمر سراً. . وتذكرت هدى قصة القاضي التي حكتها لها أمها. . وهزت رأسها بأسف فالأمر هنا واضح ولا يقبل تفسيراً آخر. . إنها محاولة واضحة للغش. على كل حال لا بد من سماع وجهة نظر سعاد.

ما كاد جرس الانصراف يقرع حتى أسرعت هدى تنادي على سعاد لتلحق بها قبل أن تنصرف.

ـ سعاد. . انتظريني أرجوك سأتمشى معك في طريق العودة إلى البيت.

ابتسمت سعاد وهي تسأل:

ـ غريبة.. ليس من عادتك أن تعودي إلى بيتك سيراً على الأقدام!!

ـ في الواقع أحسست بالحاجة إلى الحديث معك فأنت صديقتي وقد رأيتك اليوم غاضبة وحزينة وإن من واجبي أن أقف إلى جانبك وأساعدك.

نظرت سعاد إلى هدى بشيء من الدهشة والامتنان.. تابعت هدى:

ـ إنني أعرف أن الإنسان حين يكون حزيناً أو منزعجاً يحتاج إلى صديق يفضي إليه ويحدثه عما يعاني.. وإنني آمل أن تعتبريني صديقة محبة يهمها أن تسمع لك وتساعدك.

انفرجت أسارير سعاد وهي تنظر إلى هدى بحب وامتنان وتقول:

ـ أشكرك يا عزيزتي.. إن هذا لطف كبير منك.

ـ حسن يا سعاد حدثيني فكلي آذان صاغية.. ما سبب خصامك مع غادة؟

تنهدت سعاد بألم وقالت:

ـ أصلحها الله لقد كنت أظنها صديقة مخلصة حتى انكشفت لي حقيقتها اليوم عندما كنت بحاجة إليها.. صحيح صدق من قال: إنما الصديق عند الضيق.

ـ وكيف وصلتِ إلى هذه التيجة؟

ـ ما حصل يا عزيزتي هو أنني كنت منذ يومين متوعكة وقد أصابني الصداع.. ولم أرد أن أتغيب عن المدرسة حتى لا تفوتني الدروس. وهكذا جئت إلى المدرسة ولكن لم أستطع التركيز والانتباه وخاصة في درس الرياضيات.. وفي البيت كنت أتناول الدواء وألجأ إلى الراحة.

واليوم صحوت مبكرة وقد أحسست بالعافية والنشاط فحاولت أن أكتب واجب الرياضيات ولكن المسائل استعصت علي لأنني لم أفهم الدرس الذي فاتني وهكذا جئت إلى المدرسة وأنا منزعجة فليس من عادتي أن أتخلف عن كتابة واجباتي. لكنني قلت في نفسي سأستعين بصديقتي في الفسحة كي تفهمني مسألة واحدة عسى أن أتمكن من معرفة الباقي.. ولكن ما إن فاتحتها بالأمر حتى نهرتني وقالت: يجب أن تعتمدي على نفسك واتهمتني بالغش والكسل.

كان صوت سعاد قد أخذ يرتجف من التأثر وسقطت من عينها دمعة..

فأسرعت هدى تسكنها وتربت على يدها. تابعت سعاد:

ـ سبحان الله.. أنا أغش!! قولي لي بالله عليك هل هذا غش؟

ألا يحق للإنسان أن يطلب المساعدة من أصدقائه عندما يصيبه مرض أو ضيق؟!

ـ بالتأكيد يا عزيزتي.

ـ ولكن غادة لا تعرف معنى التعاون ولا تصلح للصداقة. إنها لا تفكر إلا بنفسها.

أحست هدى بمدى خطئها حين كادت تحكم على سعاد بالخطأ ومحاولة الغش، فالفتاة كانت مريضة واحتاجت للمساعدة ولكن غادة على ما يبدو لم تنتبه لذلك وظنت أنها تطلب نقل الواجب منها.. يا إلهي كم نخطىء عندما نتسرع ولا نتفهم الأمر بروية. والتفتت إلى سعاد قائلة:

ـ هدئي من روعك يا عزيزتي.. فالأمر لا يعدو أن يكون سوء تفاهم بسيط يمكن إصلاحه.

ـ كيف هذا؟

ـ إن غادة تسرعت ولم تفهم منك تماماً ما تريدين وظنت أنك تريدين نقل الواجب فتسرعت في الهجوم عليك . . وأنت بدورك تسرعت في الرد عليها بالمثل . . وهكذا وجد الشيطان فرصته الذهبية ليوقع بين صديقتين حميمتين ويفرق بينهما .

نظرت سعاد إلى هدى بدهشة وقالت :

ـ أمن المعقول أن يكون الأمر بهذا الشكل ؟!

ـ بالتأكيد هذا ما حصل . وطبعاً أنت لا يرضيك أن يفوز الشيطان ويحقق أربه!

سكتت سعاد مفكرة ثم قالت :

ـ كيف العمل إذن ؟

ـ ما رأيك أن نعرج في طريقنا على بيت غادة لنوضح الموقف ونصلح ما أفسده الشيطان ولا نترك له الفرصة ليفرح يوماً واحداً بالخصام .

ـ ولكن سنتأخر على بيوتنا . . وينشغل بال أمي وأمك .

ـ سنستأذن بالاتصال هاتفياً من بيت غادة ونطمئنهما . ما رأيك ؟

سكتت سعاد وهي تسدد نظرات الإعجاب إلى هدى . ضحكت هدى وقال : ـ هيا بنا نكسب صدقة . . وخير البر عاجله .

ارتفع صوت المؤذن ندياً إلى صلاة العصر . . فأيقظ هدى من غفوتها .

حي على الصلاة . . حي على الفلاح .

يا مرحبا بلقاء الله . . إنه فلاح الدنيا والآخرة . . وهل هناك أحلى وأعذب من أن ترمي الدنيا وأثقالها وأهلها المتكالبين عليها وراء ظهرك

وتقف بين يدي مالك الملك.. الرحمن الرحيم لتناجيه وتبثه أشجانك وآمالك.. ؟!

نهضت هدى من فراشها وحديث رسول الله ﷺ يتردد في ذهنها «وفي كل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة»..

وتساءلت: هل الخطوات تبدأ من الفراش إلى مكان الوضوء حيث تتوضأ ثم إلى مكان الصلاة.. ؟ مشت الهوينا وهي تعد خطواتها وتخامرها الرغبة في تطويل المسافة.. وقفت تفكر: ماذا لو ذهبت إلى غرفة أمها ثم إلى أخيها لتذكرهما أن الصلاة قد حانت.. ؟

في هذه اللحظة كانت أمها تتجه إلى الحمام فاسترعى انتباهها منظر هدى كيف كانت تمشي.. ثم وقفتها.. اقتربت منها وقالت:

ـ هدى مالك ؟

التفتت هدى التي كانت مستغرقة في العد ففوجئت بأمها..

نظرت إلى أمها وابتسمت.. ثم أخذت تضحك..

تعجبت الأم وأمسكت بهدى قائلة:

ـ ما بك ؟وما يضحكك ؟!

ـ لا تضحكي مني يا أماه.. تصوري لقد كنت أعد الخطوات إلى الصلاة لأعرف كم صدقة..

استغرقت الأم في الضحك ثم قال:

ـ تعدين على الله يا هدى ؟! إن الله أكرم من ذلك بكثير.. ألم يعدنا بأن الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف الله لمن يشاء ؟!

ـ آه.. لقد فاتني ذلك..

ـ أرى أنك ما زلت تفكرين في الحديث ؟

ـ نعم يا أمي . . وما أظن أنني سأنساه أبداً .

نظرت الأم مستغربة إلى ابنتها وقالت :

ـ ما أشد ثقتك بنفسك ! ! كيف وكلنا معرض للنسيان ؟ !

ـ صحيح يا أمي . . ولكننا لا ننس ما نمارسه كل يوم . فنحن لا ننسى أن نأكل وننام ونذهب إلى المدرسة في الموعد المحدد . ولا ننسى أن نؤدي الصلوات الخمس . . أليس كذلك يا أمي ؟

ـ صحيح . . وضحي ما تعنين يا هدى .

ـ لقد أصبحت عبارات الحديث جزءاً من أعمالي اليومية . . فكيف أنساه . . ؟

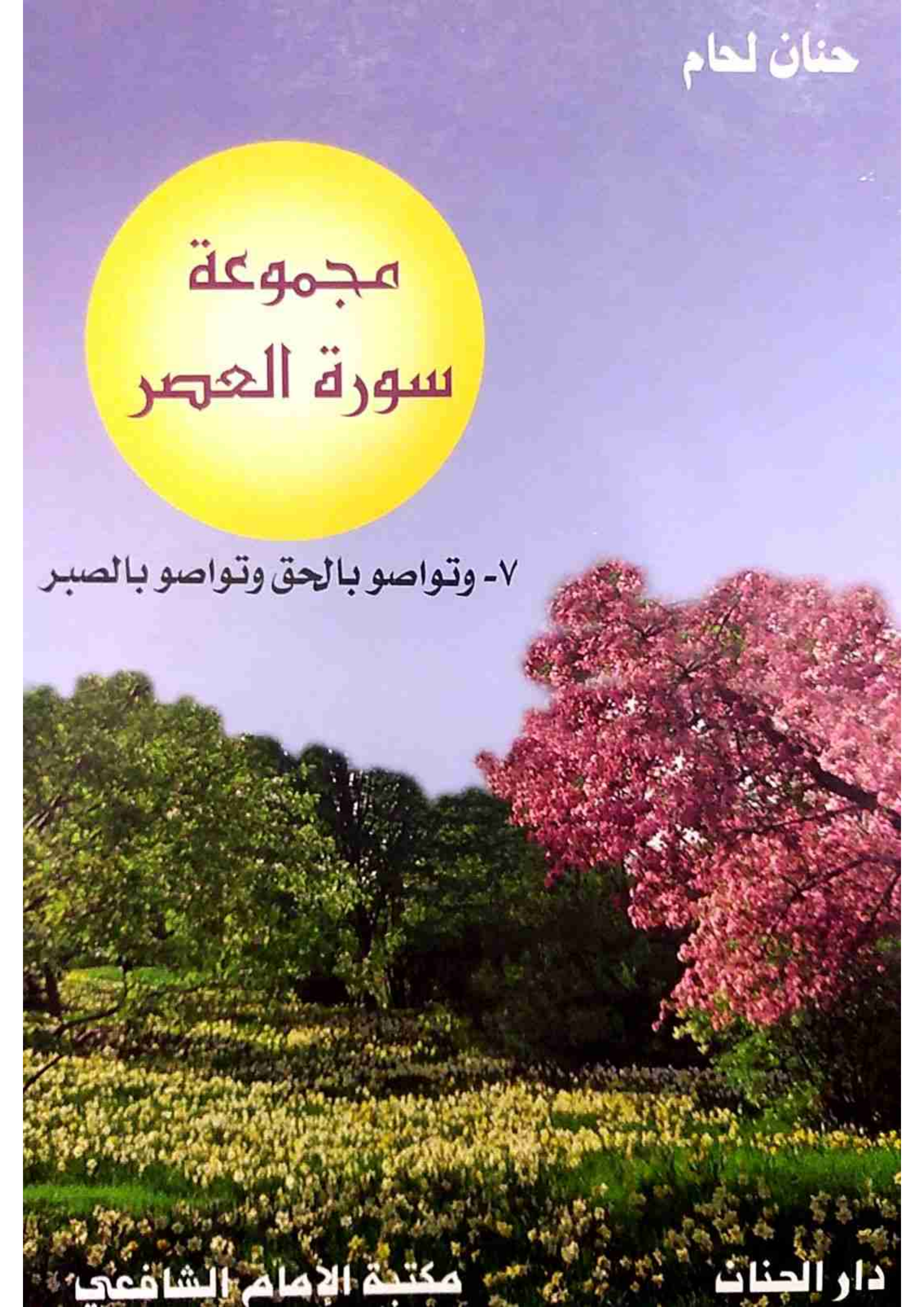
ضمت الأم ابنتها إلى صدرها وهي تقول :

ـ ما أروعك يا حبيبتي . . لقد وصلت إلى العلم الراسخ ألا وهو العمل حقاً لقد صدق علماؤنا قديماً عندما قالوا :

يهتف العلم بالعمل

فإن أجابه وإلا ارتحل .

* * *


حنان لحام
مجموعة
سورة العصر
٧- وتواصو بالحق وتواصو بالصبر
مكتبة الإمام الشافعي
دار الجنان

مجموعة سورة العصر

(٧)

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ ﴾

﴿ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ ﴾

العلم

بالعلم آمنت بالله

حنان لحام

وتواصوا بالحق

كان هادي وأخته سناء منكبين على مراجعة دروسهما عندما علا صوت مذياع الجيران يصدح بالأغاني حتى كاد يصم الآذان.

هتفت سناء: ـ آه.. لا بد أنه صديقك سعيد قد حلا له الطرب كعادته.

تنهد هادي قائلاً: ـ يا إلهي إلى متى نتحمل هذا الجار المزعج ؟!

سألته سناء: ـ عجباً له..! ألا يريد أن يدرس ويحضر للإختبار غداً ؟

ـ ومن قال لك أن سعيداً يكلف نفسه بالتحضير للإختبار ؟

ـ عجباً..! وكيف ينجح ؟!

ـ إنه غالباً ما يغش في الاختبارات وينقل من أوراق أصدقائه أو من أوراق خاصة يحتفظ بها في جيوبه.

شهقت سناء وهتفت: ـ حقاً.. ألا يعلم أن الغش حرام ؟!

أسرع هادي يقول: ـ كيف لا يعلم.. ؟! وهل يجهل أحد أن الغش حرام ؟! وكم من مرة حذرته فيها من هذا الأسلوب أنا ورفاقه.. لكنه كان يسخر منا قائلاً: ـ إنكم تقولون ذلك لأنكم لا تملكون براعتي في النقل..

ـ عجيب أمره..

سكت هادي قليلاً ووجهه ينضح بالانزعاج.. ثم قام من مكانه قائلاً:

ـ سأطلب منه أن يخفض صوت المذياع.



قالت سناء برقة: ـ انتظر قليلاً يا هادي إن كنت غاضباً فإن النصيحة إذا تحولت إلى توبيخ رفضها الناس.

توقف هادي متأملاً كلام أخته ثم قال:

ـ معك حق.. ترى ما هو الأسلوب الأفضل لنصحه.. ؟

ابتسمت سناء وقالت: ـ إن اسمك هادي وأنت هادىء ولطيف وتحب الخير للناس.. وما عليك إلا أن تعبر عن ذلك بصدق ورفق.

كان لكلمات سناء أثرها الحلو في إنعاش هادي وعودة البسمة إلى وجهه. فشكرها وتوجه نحو بيت سعيد وقرع بابه.

رحب سعيد بصديقه ودعاه للدخول ولكن هادي اعتذر بانشغاله بالدراسة وأضاف قائلاً: ـ وإني أرجوك يا سعيد أن تساعدني على التركيز في الدراسة بخفض صوت المذياع، ومما لا شك فيه أن كثيراً من الجيران الآن سيشكرون لك هذا الصنيع لأن منهم الطالب الذي يدرس ومنهم المريض.. ومنهم المحتاج إلى الراحة..

هز سعيد رأسه موافقاً بشيء من الارتباك. واستأنف هادي:

ـ قل لي هل انتهيت من التحضير للإختبار يا سعيد. ؟

ازداد ارتباك سعيد.. لكنه سرعان ما تماسك.. ثم علق ضاحكاً:

ـ الاختبار..! آه الآن أعود إليه بعد أن استعدت نشاطي بسماع الأغاني.

ابتسم هادي وقال بإخلاص: ـ أشكرك يا صديقي كثيراً.. وفقك الله إلى كل خير.

دخل سعيد إلى غرفته بعد أن أغلق المذياع وأمسك بكتاب العلوم

يقلب صفحاته التي ما زالت جديدة من قلة الاستعمال.. الاختبار في العلوم وهي مادة ثقيلة الظل عليه.. كيف سيتمكن من حفظ المطلوب منها.. ؟

أخذ يتأمل العناوين.. ترى أيها الأهم. وما لبث أن تناول بعض قصاصات من الورق ونقل عليها بعض الفقرات التي أحس بأنها هامة.. ثم طوى الأوراق بعناية حتى أصبح حجمها صغيراً ووضعها في جيب قميصه، على أن يقوم بتوزيعها غداً على جيوبه ويدس بعضها في جواربه..

تنفس بارتياح وهو يتمطى ثم قال: ـ والآن حان وقت الاستمتاع ببرامج التلفاز..

وأسرع سعيد إلى غرفة الجلوس حيث كانت أمه تقوم بكي بعض الملابس. توجه إلى التلفاز فسألته أمه: ـ هل انتهيت من استذكار دروسك ؟

ـ طبعاً انتهيت..

فتح التلفاز وجلس إليه مستمتعاً ينقله من قناة إلى أخرى.. كانت أمه تنظر إليه بعدم ارتياح.. ثم عادت تقول: ـ كيف أنجزت واجباتك المدرسية بهذه السرعة. ؟ أليس لديك اختبارات ؟!

رد عليها بشيء من التذمر: ـ لقد درست للإختبار وسأعود للدراسة بعد أن أشاهد المسلسل اليومي.. دعيني أستجم قليلاً..

كان المسلسل يعرض حياة أستاذ مخلص مستقيم يرفض الأخطاء صغيرها وكبيرها.. كاد سعيد أن يحول البث إلى قناة أخرى حين استرعى انتباهه مشهد جديد في المسلسل.. ها هي قاعة الامتحانات والطلاب منكبون على الكتابة والهم بادٍ على وجوههم.. والأستاذ يروح ويجيء

بين المقاعد. وهناك مراقب آخر يقف على المنصة.. يا له من جو رهيب.. ألا يفكر أحد من هؤلاء الطلاب بـ (النقل) ؟! أم أنه هو وحده الماهر بألاعيب (النقل) ؟! هكذا كان سعيد يتساءل في سره.. أحد الطلاب غلبه العطاس فأخرج منديلاً من جيبه فمسح أنفه ثم وضع المنديل أمامه. يا له من بارع.. لقد أخذ ينقل الإجابة من المنديل والأستاذ غافل عنه.

ابتسم سعيد بخبث وهو يسترق النظر إلى أمه التي كانت مشغولة بعملها عنه.

ولكن الأستاذ التفت فجأة فرأى ما يفعله الطالب.. اقترب منه بهدوء حتى فاجأه وأمسك بالمنديل وسحب منه ورقة الاختبار.. يا للخسارة.. توترت أعصاب سعيد بانتظار ما سيحدث.. أخذ الطالب يعتذر من الأستاذ ويرجوه أن يمنحه فرصة أخرى دون جدوى فالأستاذ مصر على حرمانه من الامتحان.. وتوسط المراقب وعرض على الأستاذ أن يرحمه ويعطيه ورقة بيضاء ليحاول من جديد.. ولكن الأستاذ انزعج جداً من هذه الوساطة وجعل يوجه للمراقب نظرات قاسية وهو يقول: ـ أتظن أنك تساعده بهذا الأسلوب ؟! تمتم سعيد بصوت غير مسموع: ـ يا له من شديد قاسٍ لا يعرف الرحمة..!! وهنا هتف الطالب مسترحماً: ـ أرجوك يا أستاذ أتريديني أن أرسب وأضيع سنة من عمري ؟!

التفت الأستاذ إليه مندهشاً ثم قال باشفاق وتأثر:

ـ ارسب يا بني.. فإن هذا أفضل لك وللناس من أن تنجح وتصبح طبيباً جاهلاً فيموت بسببك مرضى..

ارسب يا بني.. فإن هذا أفضل من أن تنجح وتصبح مهندساً فاشلاً يبني العمارات الهشة لتقع فوق رؤوس الناس



ارسب يا بني. . فإن هذا أفضل من أن تصبح محامياً بلا ضمير. . فتنصر الظالم. . وتتسبب في إعدام المظلوم. .

ارسب يا بني. . واخسر من عمرك سنة تتعلم فيها وتنجح بجدارة. . فإن هذا أفضل لك من أن تخدع نفسك وتخدع الناس بك. .

كان سعيد يرتجف من وقع كلمات الأستاذ على قلبه. . فلأول مرة يحس بخطورة ما يفعل. وحانت من أمه التفاتة إليه فرأته ممتقع الوجه مرتجفاً فسألته: ـ ما بك يا سعيد. . ؟

حاول أن يتماسك وهو يقول: ـ لا شيء. . ولكن التمثيلية مؤثرة.

ـ أجل يا عزيزي. . إن كلام الأستاذ مؤثر ومعبر عن حقيقة الغش. . فالغشاش لا يشعر بالسعادة لأنه يعرف أنه لا يستحق النجاح. . وهو كالجرثومة بين الناس أينما سار يسبب المرض والهلاك. . ولهذا تبرأ منه رسول الله ﷺ حين قال: «من غشنا فليس منا».

كان سعيد يستمع متأثراً ثم قال: ـ لم أكن أعلم أن (النقل) في الاختبار ينتج عنه كل هذه العواقب الفظيعة. . !!

وقام سعيد يجر قدميه إلى غرفته وهو يناجي نفسه: ـ استغفر الله العظيم. . لن أكون غشاشاً بعد الآن. .

وتناول القصاصات من جيب قميصه فمزقها وألقاها في سلة المهملات. . أحس بأنه تحرر من حمل ثقيل كاد أن يحطم نفسه. . وأقبل على كتاب العلوم يلتهم ما فيه بروح جديدة. . إنه يريد أن يتعلم لينجح بجدارة.

* * *

وتواصوا بالصبر

.عادت رنا إلى البيت على غير عادتها حزينة واجمة. . وحين رأتها أختها الكبرى رحاب على هذه الحال سألتها بلهفة: ـ ما بك يا رنا ؟

أطرقت رنا ساكتة. . قالت رحاب ملاحظة:

ـ ألا تريدين أن تقولي لأختك الحبيبة ما حصل معك. . ؟!

ومدت يدها إلى وجه رنا فرفعته ونظرت في عينيها وهي تقول بود:

ـ هيا أخبريني ما بك ؟

ـ لقد ضحكت مني رفيقاتي وقاطعنني.

ـ ولماذا يا حبيبتي. . ؟ هل تعاليت عليهن ؟ أم بخلت عليهن بشيء ؟

نظرت رنا بعتاب إلى أختها وقالت: ـ سامحك الله.

ابتسمت رحاب وقالت: ـ ما السبب إذن يا عزيزتي ؟

ـ لقد رأيتهن في الفسحة يلعبن لعبة غريبة. . تصوري يا أختي. . كانت كل واحدة بدورها تقوم بتقليد إحدى المعلمات في حركاتها وكلماتها والباقيات يضحكن ساخرات وهنَّ يطلقن الألقاب البشعة على المعلمات. . !!

ـ يا للهول. . وماذا فعلت أنتِ ؟

ـ لقد غضبت منهن. . وقلت لهن: هل نسيتن السورة التي تعلمناها في درس الدين: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١] . ؟ فضحكن مني وقررن مقاطعتي لأنني أنغص عليهن لعبهن وتسليتهن. . !!

قالت رحاب بلهجة عتاب : ـ ومن أجل ذلك أنت حزينة ؟

ـ نعم حزنت لأنني أردت لهن الخير فقابلنني بالشر . .

ـ وأين الصبر يا عزيزتي ؟ هل نسيت أن الذي ينصح الناس ويدعوهم للخير عليه أن يصبر . . ؟! ويتحمل كل ما يصدر عن الناس من أذى ؟

ـ ولكنني كنت مخلصة لهم ولم أوذهم حتى يؤذوني هكذا ؟

ـ وهل كان نبينا محمد ﷺ يؤذي الناس حين كان يدعوهم إلى محبة الله وعمل الخير ؟!

ـ وهل آذاه الناس لأنه كان ينصحهم ؟

ـ لقد آذوه كثيراً . . هل أحكي لك بعض ما فعلوا به ؟

قالت رنا بلهفة : ـ أجل احكي لي أرجوك .

ـ حسناً . . تعلمين أن نبينا محمداً ﷺ كان يحب الناس كثيراً . . وكان يتألم لجهلهم وضلالهم فقد كانوا يعبدون الحجارة . . وحياتهم مليئة بالظلم والشقاء . . فالقوي يظلم الضعيف . . والسيد يتكبر على العبيد .

أخلاقهم سيئة وحياتهم فارغة . ولهذا أمر الله نبينا محمداً ﷺ أن يقرأ عليهم القرآن ويدعوهم للإيمان بالله وفعل الخيرات . . وآمن به بعض الناس وابتعوه ولكن أكثر أهل مكة كانوا مستائين منه وقابلوه بالأذى والشتم . . وصاروا يضعون الشوك في طريقه . . ويرمون القاذورات على ظهره وهو يصلي عند الكعبة . . وهو صابر على أذاهم لا يترك نصحهم . . وفكروا في قتله لكن عمه أبو طالب كان يحميه ـ وهو سيد عظيم في مكة ـ ولكن بعد مدة مات هذا العم . . فصار أهل مكة يضعون خطة لقتل النبي دون أن يستطيع أهله أن ينتقموا له منهم . . عندها فكر نبينا محمد ﷺ بالذهاب إلى بلدة أخرى اسمها الطائف ليدعوهم إلى الخير لعلهم

يستجيبون له فيبقى معهم ويعلمهم حياة السعادة والخير في ظل القرآن. وفعلاً ذهب نبينا محمد ﷺ إلى الطائف وتحدث إلى رؤسائها ونصحهم ودعاهم إلى القرآن ولكنهم سخروا منه وضحكوا عليه. فخرج من عندهم حزيناً فلحق به الأطفال والسفهاء وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى سالت الدماء على قدميه وهو صابر يدعو ربه ويقول: «إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي».

أرأيت يا حبيبتي إن نبنيا محمداً ﷺ لم يكن يهمه أذى الناس إن كان الله يحبه ويرضى عنه.. لقد كان مستعداً لأن يتحمل كل أذى مقابل أن يرضى عنه الله.. واستمر في طريقه صابراً حتى اقترب من مكة.. لكنه توقف حائراً كيف يدخل مكة وأهلها يريدون قتله..؟! ماذا يفعل ؟!

وإذا بالملك جبريل يناديه ويقول له: ـ يا محمد إن الله قد بعث لك ملك الجبال لتأمره بما تشاء.. وفعلاً جاء ملك الجبال وقال:

ـ يا محمد إن شئت أطبقت على أهل مكة الجبال فلا يبقى منهم أحد.. ؟

وكانت مكة محاطة بالجبال من جميع الجهات. ما رأيك يا رنا ؟هل يقبل رسول الله ﷺ بهذا الحل ؟

كانت رنا منتبهة تفكر.. فقالت بلهفة: ـ فماذا قال نبينا محمد ﷺ ؟

أخبريني بالله عليك.

ـ لقد رفض نبينا محمد ﷺ هذا الحل لأنه لا يريد هلاك الناس بل يريد لهم النجاة وسعادة الدنيا والآخرة.. وقال إنه يطمع أن يخرج من أولادهم من يؤمن بالله ويعمل الصالحات.

ـ وماذا حصل بعد ذلك ؟

ـ لقد حمى الله نبينا محمد ﷺ من الكفار واستمر يدعو الناس للخير حتى آمن به أهل المدينة فهاجر إليهم. . ولم يتركه كفار مكة. . بل قاتلوه عدة مرات. . لكنهم لم ينجحوا في قتله أو منعه من دعوة الناس إلى الخير واستمر عدد المؤمنين يتكاثر إلى أن جاء يوم رجع فيه نبينا محمد ﷺ إلى مكة ومعه عدد كبير من المؤمنين ليمنع الناس من الغدر والظلم. ولم يستطع الكفار أن يمنعوه من دخول مكة. . ونصره الله عليهم فوقف أمامهم يقول: ـ ما تظنون أني فاعل بكم ؟!

ما رأيك يا رنا ؟ ماذا يفعل بهم وقد آذوه وحاربوه وأرادوا قتله ؟!

ـ هل عاقبهم ؟إنهم يستحقون العقاب.

ـ بل عفا عنهم وقال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء. . !

وعندها أدرك أهل مكة عظمة القرآن الذي يدعو إليه نبينا محمد ﷺ فآمنوا به ليتعلموا منه حب الخير والصبر على الأذى والعفو عند القدرة.

ـ يا الله. . كم كان نبينا محمد ﷺ عظيماً في صبره وعفوه. .

ـ والآن يا رنا هل ما زلت حزينة من رفيقاتك ؟

ـ بل سأصبر عليهن.

ـ بارك الله فيك يا حبيبتي فأنت تطبقين ما قاله الله في سورة العصر:

﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾

ابتسمت رنا وعانقت أختها وهي تقول:

ـ أشكرك يا رحاب لأنك ذكرتني وأوصيتني بالصبر.

* * *